مَا جَاءَ فِي الضَّبِّ عَنِ العَرَبِ



تأليف

أحمد الشرقاوي إقبال



مَا جَاءَ فِي الضَّبِّ
عَنِ العَرَبِ

مَا جَاءَ فِي الضَّبِّ عَنِ العَرَب

تأليف

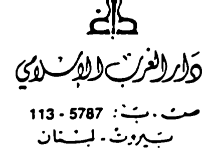
أحمد الشرقاوي إقبال

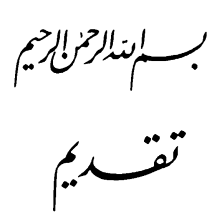


الطبعة الأولى

1409 - 1988

سحب جديد 1993





كان للحيوان النافع عند الانسان العربي شأن أي شأن، إذ كان منه غذاؤه، ومسكنه، وركوبه، والكثير العديد من مرافق عيشه، كما كان للضار المؤذي منه خطره على حياته، فكان عليه أن يعرفه معرفة يتأتى له معها أن يجتلب منفعته، ويتقي عاديته، وأن يَتَهَمَّمَ به أنيساً ومتوحشاً، ونافعاً ومؤذياً.

ويظهر ذلك التهمم في تلك الألفاظ التي تحدثت عن حيوان الجزيرة العربية، والتي كثرت كثرة أوفت بالحاجة وزادت عليها.

إن هناك الجم الغفير من الألفاظ التي تكلمت في نشأته وأطوارها، وفي أسنانه ومقاديرها، وفي أعضائه وألوانه وشِيَاتِه، وفي مأكله ومشربه، وفي صحته وأدوائه.

وثمة ألفاظ تكلمت في سيره وزحفه وطيرانه، وقيامه وجلوسه، وسائر ما يتعلق بحركاته وسكناته.

وثمة كلم سمت أصواته نوعاً نوعاً، ودرجاتها علواً وانخفاضاً، وعبرت عما تدل عليه من لذة أو ألم، ورغبة أو رهبة، وما سواها من أحاسيسه وانفعالاته.

ثم هناك كلم أخرى سمت أجناسه، وصغاره، وجماعاته،

ومساكنه التي يأوي إليها، ومخابئه التي ينجحر فيها.

وبالإجمال فإنه ينـدر أن تجد شيئاً مما يتعلق بحيوان الجزيرة العربية دون أن تجد له في اللسان العربي كلمة تسميه، أو عبارة تؤدي فيه المراد.

ذلك المعجم الحيواني الثر الغزير الذي اهتم به العربي الأول وضعاً، قد عني به خلفه اللغوي من بعده تدويناً وتصنيفاً في كتب الخيل والإبل والشاء، إلى جانب كتب الوحش والطير، فما دون ذلك من كتب الحشر والهوام والخشاش.

ومن حيوان الجزيرة العربية ذلك الحيوان الزاحف المعروف باسم الضب، والذي وجدنا العربي قد التفت إليه التفاتة خاصة، فسماه وكناه، ووصف خلقه وصفاً كاشفاً داخلاً وخارجاً، ونعت طباعه حسناً وقبيحاً، وحميداً وذميماً، وتحدث عن مسكنه وما يعتمده في اتخاذه من حيطة وتدبير، توقياً من الأخطار، واحتراساً من الأعداء، وتكلم في نشأته وأطوارها، وفي امتداد عمره، ثم في طول ذمائه بعد تعرضه للقتل بالذبح أو سواه مما يُودي بالحياة ويفتك بالحي فتكاً لا تراخي فيه، وعرف بالحيلة في اصطياده، وذكر شهوته الى أكله، ونظم فيه الأشعار، وضرب به العديد من الأمثال، وتقول على لسانه الأقاويل، وتطبب بأشياء منه، وتأول رؤياه في الأحلام، إلى أشياء أُخَرَ تفصل تفصيلاً يدخل تحت هذا الإجمال.

وكنت من قديم عهد قد عنيت بما جاء في الضب عن الأعراب، فجمعت من ذلك ما أقدمه اليوم للقارىء ممزوجاً صدقه بكذبه، ومخلوطاً جده بهزله، وأملي أن يعود كلانا بما ابتغاه من إفادة واستفادة إن شاء اللّه .

اسم الضب وكنيته

الذكر منه الضب، وأنثاه ضبة بهاء، وجمعه في القلة أضب مثل كف وأكف، وفي الكثرة ضباب بزنة كتاب، وله جمع ثالث هو ضبان على مثال فعلان ، وهذا عن اللحياني ، قال : وذلك إذا كثرت جداً، يعني أنه يكون جمع كثرة إذا جاء على هذه الصيغة، واعترض عليه ابن سيدة في ذلك فقال: لا أدري ما هذا الفرق؟ لأن فعالاً وفعلاناً سواءٌ في أنهما بناءان من أبنية التكثير، وجاء عن الأصمعي فيه جمع رابع هو مضبة بوزن مفعلة فقال: سمعت غير واحد من العرب يقول: خرجنا نصطاد المضبة أي نصيد الضباب، ونظيره من الجموع مشيخة في جمع شيخ ، ومسيفة في جمع سيف.

واسم صغير الضب الحسل، وبه يكنى فيقال: أبو الحسل، ويقال أيضاً أبو الحسيل على التصغير.

ويسمى الضب أيضاً المسبل بزنة المحسن، ومنه جاءت بنات سبل تكنية للضباب ، وجاءت عنهم كنية أخرى هي أبو ضبيبة ، وتلك تكنية لنوع من الضباب أقزام ضِآلٍ . .

ومن ظرافة الأعراب أن كنوا طوائف من الحيوان تكنيات ذوات معان وإيماءات منها للحيوان المدجن:

أبو الحجاج للفيل، وأبو أيوب للجمل وأبو مضاء للفرس، وأبو الأثقال للبغل، وأبو صابر للحمار.

ومنها للمتوحش:

أبو حفص للأسد، وأبو جهل للنمر، وأبو جعدة للذئب، وأبو الحصين للثعلب.

ومنها للطير:

أبو الأبد للنسر، وأبو شجاع للصقر، وأبو الهيثم للعقاب، والطاووس أبو الوشي، والديك أبو اليقظان، والهدهد أبو الأخبار.

ومن ذلك أبو الجهم للخنزير، وأبو قيس للقرد، وأبو سفيان للقنفذ، وأم عثمان للحية، وأم عِرْيَطٍ للعقرب، وأم قشعم للعنكبوت، والنملة أم توبة، والقملة أم طلحة، فأما الضب فله الكنية المذكورة قبل هذا الاستطراد.

وسموا باسمه مذكراً مكبراً غير واحد من رجالهم.

والضبيب بصيغة التصغير علم على فرسين كلاهما من خيل العرب المشهورة، وهو أيضاً علم على واد وماء.

وبنو ضبيب بطن من جذام، منهم رفاعة بن زيد الصحابي رضي الله عنه.

وقلعة الضب محلة بالكوفة ينسب إليها أبو البركات عمر ابن إبراهيم الحسيني شيخ الزيدية .

وبقلة الضب حشيشة.

وضبة على التأنيث أبو حي من العرب العدنانية، وهو ضبة ابن أد بن طابخة ، واليهم ينسب المفضل بن محمد الضبي.

صاحب الأمثال، وجامع الاختيار المعروف بالمفضليات نسبة الى اسمه.

وأبو ضبة من كناهم، وممن عرف بها شاعر من هذيل.

والضبة جلد الضب يدبغ ليُوعَى فيه السمن.

والضبة حديدة عريضة يضبب بها الباب، وهي أعطيت هذا الاسم من كونها بهيئة خلق الضب.

وتجوزوا في اسمه فقالوا: في صدره ضب أي غل كامن كمون الضب في أعماق جحره، وعليه قول كثير من قصيدة يخاطب بها الأمير الأموي عبد العزيز بن مروان:

وما زالت رقاك تسل ضغني وتخرج من مكامنها ضبابي
ويرقيني لك الحاوون حتى أجابك حية تحت الحجاب

ومنه أيضاً قول سابق البربري:

ولاتـك ذا وجهين يبدي بشاشة
وفي صدره ضب من الغل كامن

ونعتوا به فقالوا: هو خب ضب أي مخاتل مراوغ، فعل الضب بحارشه فيما يقول الشاعر:

وأخدع من ضب إذا خاف حارشا
أعد له عند الذنابة عقربا

●●

في خلق الضب

رأس الضب

قالت العرب: رَأَس الضب يُرَئِّسُ ترئيساً فهو مُرَئِّسٌ إذا أقبل برأسه نحو باب الجحر وجعل ذنبه إلى داخله، وتقول أيضاً: رَاءَسَ يُرائس مراءسة فهو مُرائِسٌ.

أسنان الضب

وعندهم أن أسنان الضب تنمو مع نمو جسده وتساير نشأتها نشأته إلى أن يتم تمامه، وأنه لا يلقي منها شيئاً، وهم قد قالوا في مثل من أمثالهم: لا آتيك سن الحسل، فقصدوا بذلك التأبيد وعدم الوقوع، لأن الحسل لا يستبدل بأسنانه.

وجاء عنهم أيضاً خلاف ذلك فيما حكاه الجاحظ في الحيوان (ج 6ص 116-117) عن زيد بن كثوة المزني قال:

«وسن الحسل مثل سن القلوص ثلاث سنين حتى يلقح، ولو كانت سن الحسل على حال واحدة أبداً لم تعرف الأعراب الفتى من المُذَكِّي، وقد يكون الضب أعظم من الضب وليس بأكبر منه سناً، قال: ولقد نظرت يوماً إلى شيخ لنا يفرّ ضباً جَحْلاً

سِبَحْلاً قد اصطاده، فقلت له: لم تفعل ذلك؟ فقال: أرجو أن يكون هرماً».

عقنقل الضب

العقنقل والعنقل بإسقاط أول القافين قانصة الضب، أو هو مصارينه، ويقال إنه كشيته.

كشية الضب

الكشية بوزن الكلية، ويقال فيها أيضاً كشّة بتضعيف الشين شحمة صفراء من أصل ذنبه.

ذكر الضب

وللضب عضو تناسلي يسمى النزك بفتح النون وبكسرها أيضاً مع سكون الزاي، وهو من قضيبين اثنين يتفرعان من أصل واحد، وذلك ما ذكره شاعر وصف قوماً بالقلة والتفرق فقال:

تفرقتم لا زلتم قرن واحد
تفرق أير الضب والأصل واحد

وفي ذلك أيضاً ما ذكره حمران ذو الغصة من أبيات وصف فيها ضباباً فقال:

ترى كل ذيال إذا الشمس عارضت
سما بين عرسيه سمو المخايل
سبحل له نزكان كانا فضيلة
على كل حاف في البلاد وناعل

وزعمت الأعـراب أن هذه الثنـائية في العضـو التناسلي خاصة للضب قد انفرد بها دون سواه من سائر الحيوان.

وأخبـر من عني بالتفتيش في هـذه المسألـة وقتـذاك أن الضب قد شورك في الأمر من الحرذون ومن السقنقور، وإلى القارىء ما أتى به الجاحظ في حيوانه (ج 6 ص 57-58) في هذا الصدد، ونصه:

ومن أعاجيبه (يريد الضب) أن له أيرين وللضبـة حرين وهذا شيء لا يعرف إلا لهما، فهذا قول الأعراب.

وأما قول كثيـر من العلماء، ومن نقب في البـلاد، وقرأ الكتب، فإنهم يزعمون أن للسقنقور أيرين وهو الذي يتداوى به العاجز عن النكاح ليورثه ذلك القوة.

قالوا: وإن للحـرذون أيضاً أيـرين، وإنهم عاينـوا ذلك معاينة، وآخر من زعم لي ذلك موسى بن إبراهيم.

وقد تمنت حُبَّى المدنية في زوجها ما عبرت عنه فقالت:

وددت لـو انـه ضـب وأنـي
ضـبـيـبـة كـديـة وجـدا خـلاءا

وحُبَّى هذه ذكرها الزمخشري في كتابـه المستقصى في الأمثال (ج 1 ص 185 -186)فقال بشأنها ما نصه:

«هي امرأة مزواج، تزوجت على كبرها فتى شاباً، ولها ابن كهل، فقال لمروان بن الحكم: صيرتني وإياها أحدوثة، فاستحضرها مروان وابنها، فقالت لابنها غير مكترثة: يا برذعة الحمار، أرأيت ذلك الشاب المقدود العنطنط، والله ليصرعن

أمك بين الباب والطاق فليشفين غليلها، ولتخرجن نفسها **دونه»**.

وحُبَّى هذه هي التي ضربت مثلاً في الشبق فقيل: **أشبق من حُبَّى**.

القـرنتـان

القرنتان زاويتا رحم الضبة، تحمل في هذه مـرة، وفي الأخـرى مرة، وفي هـذا ما حكـاه الجاحظ في حيـوانـه (ج 6 ص 75) فقال:

«قال ابن الأعرابي: للأنثى سبيلان، ولرحمها قـرنتان، وهمـا زاويتا الـرحم، فإذا امتـلأت الزاويتـان أتأمت، وإذا لم تمتلىء أفردت».

وبإثر ذلك جاء باعتراض على كلام ابن الأعرابي فقال:

«وقـال غيره من العلمـاء: هذا لا يكـون لذوات البيض والفراخ، وإنما هـذا من صفة أرحـام اللواتي يحبلن بالأولاد، ويضعن خلقاً كخلقهن، ويرضعن، وكيف تفرد الضبة وهي لم تتئم قط؟ وهي تبيض سبعين بيضة، في كل بيضة حسل».

ذنـب الضـب

وذنب الضب هو سـلاحه الأشـد، وبه يحمي نفسـه من المحترشين، وبه يدافع أعداءه المغيرين عليه من الحيوان من ورل وحية وظربان.

جاء في حيوان الجاحظ (ج 6 ص 121) ما نصه:

«والضبة تقاتل الحية وتضربها بـذنبها، وهـو أخشن من السَّفَن، وهو سلاحها، وقد أعطيت فيه من القوة مثل ما أعطيت العقاب في أصابعها، فربما قطعتها بضربة، أو قتلتها، أو قدتها، وذلك إذا كان الضب ذيالاً مذنباً. . . ».

وعقد ذنب الضب إحدى وعشرون عقدة، وفي عدتها هذه حكاية طريفة أوردها حمزة الأصفهاني في الدرة الفـاخرة(ج1 ص 312) فقال:

«وزعموا أن بعض أهل الحاضرة كسا أعرابياً ثوباً فقال له: لأكافئنك على فعلك بما أعلمك، كم في ذنب الضب من عقدة؟ فقال: لا أدري، قال: فيه إحدى وعشرون عقدة».

وقالوا: ذَنَّبَ الضب تذنيباً، وهو أن يخرج ذنبه إلى فم جحره ثم يضرب كالمخراق يمنة ويسرة، فما يصيب به شيئاً من محترش أو حيوان إلا آذاه أشد الأذى وأبلغه.

ومن تكاذيب الأعراب أن الضب كان في أول الزمن غير ذي ذنب، وأن الذنب الموصول بآخره اليوم كان للضفدع، ثم آل الى الضب في الواقعة التي حكى خبرها الزمخشري في كتابه المستقصى في أمثال العرب (ج 1 ص 139 -140) فقال :

«زعمت الأعراب في خرافاتها أن الضب والضفدع تصابرا عن الماء فصبره الضب، فناداه الضفدع: يا ضب وردا، وردا، فقال:

أصبـح قـلبـي صـردا لا يـشـتـهـي أن يـردا

فناده اليوم الثاني فقال ذلك وزاد:

إلا عـــرادا عـــردا
وصليـــانـــا بـــردا
وعثكنـــا ملتبـــدا

فناداه اليوم الثـالث فلم يجبه، فبـادر الى الماء، فتبعه الضب فأخذ ذنبه، وكان قَبْـلُ ممسوح الـذنب، والضفدع ذو ذنب».

جلـد الضـــب

يوصف جلد الضب بالحرشة، وهي الخشـونة فيقـال: ضب أحـرش، وجاءتـه هذه الصفـة من الحراشف التي على جلده، وفي مقاييس ابن فارس من مادة (حرش) مانصه:

«الحاء والراء والشين أصل واحد ترجع إليه فروع الباب، وهو الأثر والتحزيز، فالحرش الأثر، ومنه سمي الرجل حراشا، ولذلك يسمون الدينار أحرش، لأن فيه خشونة، ويسمون الضب أحرش، لأن في جلده خشونة وتحزيزا».

ولخشونة جلده اتخذ منه سَفَنٌ تسحج به السهام والسياط والصحاف بأثر صنعها حتى تذهب خشونة الجِدَّة.

وأورد الجاحظ في حيوانه (ج 6 ص 119) حكايـة تتعلق باستعمال جلده عكة قص فيها ما نصه:

«قال زيد بن كثوة المزني: قال العنبري وهو أبو يحيى:
مكثت في عنفوان شبيبتي وريعان من ذلك أريغ ضبـا،

وكان ببعض بلادنا في وِشَازٍ من الأرض، وكان عظيماً منكرا ما رأيت مثله، فمكثت دهراً أُريغه فما أقدر عليه، ثم إني هبطت إلى البصـرة فأقمت بهـا ثلاثين سنـة، ثم إني ـ والله ـ كررت راجعاً الى بلادي فمررت في طريقي بمـوضع الضب معتمـداً لذلك فقلت: والله لأعلمن اليوم علمه، وما دهري الَّا أن أجعل من جلده عكـة للذي كان عليـه من إفراط العـظم، فـوجهت الرواحل نحوه، فاذا أنا به والله محرنبئـاً علـى تلعة، فلما سمع حس الرواحل، ورأى سواداً مقبلاً نحوه مر مسرعاً نحو جحره، وفاتني والله الذي لا إله إلا هو».

أراغ الصيد وغيره: طلبه، والوشاز جمع وشز، وهو النشز المـرتفع من الأرض، وقـوله: (ومـا دهـري) أراد ومـا غـايتي وقصدي، والعكة زق صغير يتخذ لحفظ السمن، والمحرنبىء المتهيىء للشر.

ولجلد الضب صبر على الحرارة وقلة تأثر بها، فإذا بلغ الحر أن يؤثر فيه فهو عندئذ أشد ما يكون، ولذلك قال الشاعر يصف هاجرة:

وهـاجـرة تنجـي عن الـضـب جـلده
قـطعت حشـاهـا بـالغـريـريـة الصهب

تنجى معناه تسلخ أو تقشر والغـريرية إبل منسـوبة إلى الغرير بصيغة التصغير، وهو فحل مشهور، والصهبة لون يكون حمرة في بياض.

بيض الضبـاب

والضبة تبيض، وبيضها المكن، واحدتها مكنة مثل تمر وتمرة، وضبة مكون، وهي التي جمعت بيضها في بطنها، وقد أمكنت الضبـة فهي ممكن، واسم بيضها أيضـاً السـرء، وقـد سرأت فهي سروء، وقد أسرأت اذا حان ذلك منها، ويقال: ضبة ناظم أي ذات إنظامة، والإنظامة ما يتجمع في بطنها من بيض، ويقال أيضاً: ضبة منظم على مثال مطفل ومغزل ومرضع، كما يقال منظم بالتثقيل وبغير هاء أيضا.

والضبة تبيض السبعين بيضة فما فوقها، ويملأ بيضها ما بين أصل ذنبها الى رئتها.

والضبة لا تجثم على بيضها ولا تحضنه، ولكنها تدفنه في أبرد مكان وأثراه، ثم تتعاهده الى حين انصداعه، ويكون ذلك في مقدار أربعين يوماً بالتقريب.

وتخرج الحسول من البيض كاسية قادرة على العيش إذا نجت بأنفسها من الضبة الأم التي تأخذ في أكلها فور ما تخرج من البيض فلا يكاد ينجو منها الا الهارب الشريد.

ونسوق للقارىء هنا ما حكاه الجاحظ في حيـوانه (ج 6 ص 117 -118) عن عمرو بن مسافر مما يتعلق ببيض الضباب وبأكلها حسولها فقال بالنص:

«وزعم عمرو بن مسافر أن الضبة تبيض ستين بيضة، فاذا كان ذلك سدت عليهن باب الجحر، ثم تدعهن أربعين يوماً،

فيتفقص البيض ويظهر ما فيه، فتحفر عنهن عند ذلك، فإذا كشفت عنهن أحضرن وأحضرت في أثرهن تأكلهن، فيحفر المنقلب منها لنفسه جحراً ويرعى البقل.

قال: وبيض الضب شبيه ببيض الحمام، قال: وفرخه حين يخرج يخرج كيساً كاسياً خبيثاً مطيقاً للكسب، وكذلك ولد العقرب، وفراخ البط، وفراريج الدجاج، وولد العناكب».

●●

أطوار حياة الضب

أطوار حياته

حددت الأعراب أعمار الضب وقدرت أطوار حياته تقديرا، ثم سمته في كل طور منها باسم يقع عليه في ذلك الطور، فهو سرء عندما يكون بيضة، ثم يصير حسلاً عندما يخرج من البيضة، ثم يصبح مطبخاً، وقد طبخ تطبيخاً إذا دخل في ذلك الطور، ثم يكون غيداقا، ثم يكون ضبا بعد ذلك.

وجاء في ترتيب آخر أنه الحسل أولا، ثم الخضرم، ثم المطبخ، ثم الضب.

وذكر بعضهم أنه يكون مطبخاً عندما ينسلخ ويصفر جلده.

ومن نعوته في طور الهرم قولهم:

ضب جحل، وهو المسن الكبير منها، وجمعه الجحول والجحلان.

ومثله ضب علب بزنة كتف إذا هو كان مسناً ضخماً.

وقالوا فيه بنفس المعنى ضب عدمل وعدملي وعدامل.

ونعتوه بقولهم سبحل بزنة هزبر، وسبحل على مثال

جعفر، وسبحلل بلامين، كل ذلك يقال فيه إذا كان ضخما وقديما.

وقالوا فيه على التقبيح ضب ضفطار، إذا جمع إلى الهرم قبح الخلقة والجهامة.

●●

صِفاتٌ وأفعَال

والضب عند الأعراب منعوت بالكيس والحذر وشدة التوقي من الأعداء، ذكروه بذلك في الأخبار والأشعار وضربوا فيه الأمثال.

فمن كيسه أنه لا يحفر جحره إلا في الصلابة خشية أن ينهار عليه، ثم إنه بعد ذلك لا يحفر إلا في مرتفع من الأرض حتى يتقي خطر السيول، وهو إذا حفر عمق الحفير ونزل بغوره قدر ما يستطيع.

ومما يأتيه الضب بهداية الفطرة والحس المصيب أنه إذا أصابه شيء من السموم تطلب ترياقه من تلك الحشيشة المعروفة باسم آذان الفار، فيكون في أكلها شفاؤه.

وفي طبع الضب مع ذلك السهو والنسيان، فإنه إذا تباعد عن جحره في طلب المطعم لم يكد يرجع إليه، ولذلك ضربوا به المثل في سوء التهدّي فقالوا: أبله من ضب، وأحير من ضب، وأضل من ضب.

والضب من الحيوان المنعوت بشدة الكبر وكثرة التنفج، ولا سيما إذا أخصب وأمرع جنابه، ومن ثم ضربه عبدة بن

الطبيب مثلاً في تنفج يحيى بن هزال فقال من أبيات:

ما كنت أول ضب صاب تلعته
غيث فأمرع واسترخت به الدار

التلعة ما ارتفع من الأرض، وهو أيضاً ما انهبط منها، وصاب الغيث المكان إذا جاده وروَّاه، وقوله: استرخت به الدار عبارة عن كونه أصبح في رخاء ونعمة وسعة حال.

والضب موصوف بالعقوق لأنه يأكل حسوله أكلاً لَمّاً فما ينجو منه إلا الهارب الشريد، ولذلك ضربوه مثلا في العقوق فقالوا: أعق من ضب.

وقد ذكر الجاحظ في حيوانه (ج 6 ص 48) ما يدبره في أكل حسوله فقال ما نصه:

«ان الضب إذا أراد أن يأكل حسوله وقف لها من جحرها في أضيق موضع من منفذه إلى خارج، فإذا أحكم ذلك بدأ فأكل منها، فإذا امتلأ جوفه انحط عن ذلك المكان شيئاً قليلاً فلا يفلت منه شيء من ولده إلا بعد أن يشبع ويزول عن موضعه فيجد منفذاً».

ومن قذر الضب أنه يعود في قيئه صغيراً، ويأكل رجيعه كبيراً، وفي قذره هذا يقول الشاعر:

يعود في تيعه جِذْثَانَ مولده
فإن أسن تغدى نجوه كلفا

والضب يصوت، واسم صوته الفحيح، وله صوت آخر

يسمى الكشيش، وقد فح يفح فحيحاً وكش يكش كشيشاً.

والضب من الحيوان الذي يستجيب للأصوات الشديدة، وهو إذا سمع الشيء من ذلك برز وتطلع ليرى مصدر ما يسمع، وفي المعاني الكبير لابن قتيبة:

«والحية مثل الضب والضبع إذا سمعا اللدم والهدة والصوت الشديد خرجا ينظران، والحاوي إذا دنا من الجحر صفق بيديه، ورفع صوته، وأكثر من ذلك حتى تخرج الحية كما يخرج الضب والضبع».

ومن أفعال الضب الخدع، وهو تواريه في جحره لئلا يحترش، قال كثير:

ومحترش ضب العداوة منهم
بحلو الخلا حرش الضباب الخوادع

وجاء في الحديث:

«رفع رجل إلى عمر بن الخطاب ما أهمه من قحط المطر فقال: قحط السحاب وخدعت الضباب وجاعت الأعراب».

أراد أن الضباب استترت وتغيبت في أجحارها.

وقال الطرماح:

يُلاَوِذْنَ من حر يكاد أُوَارُه
يذيب دماغ الضب وهو خدوع

ويقال: عكد الضب واستعكد إذا لاذ بجحر أو شجر من

صائده أو مخافة عقاب أو بازي أو غيرهما من الحيـوان الذي يعدو عليه، وذكر الطرماح ضبابا استعصمت من ذئب فقال:

إذا استـعـصـمـت منــه بـكــل كــدايــة
من الصخــر وافــاهــا لــدى كــل مســرح

ويقال أيضاً: عكد الضب بذنبه إذا لواه.

ولا تكاد ترى الضب إلا وهو سام بـرأسه يتشـوف ويرقب متطلعاً لشيء ما .

●●

مَسكن الضَب

وضعت العرب لمساكن الحيوان أسماء اختلفت باختلاف أنواعه، فقالوا لمسكن الإنسان الوطن، وجعلوا الإصطبل للدواب، والعرين للأسد، والوِجَار للضبع، والعش والوكن للطائر، والقرية للنمل، والخلية للنحل، والكور للزنبور وهكذا.

فأما الضب فله الجحر، وجمعه جحرة وأجحار، وجحر الضب دخل فيه، وأجحرته أنا فانجحر وتجحر.

والجحر يكون أيضاً اسماً لمسكن الحية واليربوع والثعلب، على أن الجحر يقع على كل ما احتفرته الهوام والسباع لأنفسها بعامة.

ويقال لمسكن الضب أيضاً المكو بفتح فسكون، والمكا مفتوح الأول مقصورا، وسموه أيضاً عكدة بوزن عقدة.

وربما سمي جحر الضب عريناً، ذكر ذلك الجاحظ في حيوانه (ج 7 ص 42) فقال:

« وجحر الضب يسمى عريناً ، وهو غير العرين الذي يضاف إلى الشجر» .

والضب لا يتخذ مسكنه بحيث اتفق له، وهو لا يحفره حيث كان ، ولكنه يحتاط في ذلك لنفسه ، ويدبر الأمر فيه تدبير الكيس الحازم، ويختار له أنسب الأمكنة وآمنها من الأخطار والآفات، وذلك ما وصفه به شاعر فقال:

سقى اللّه أرضاً يعلم الضب أنها
بعيد من الآفات طيبة البقل

بنى بيته فيها على رأس كدية
وكل امرىء في حرفة العيش ذو عقل

ويقال: ضبب المكان وأضب إذا كثرت ضبابه، وقالوا: أرض مضبة بضم الميم وكسر الضاد، ومضبة بفتح الميم والباء أي كثر فيها الضباب.

ويذكر اسم الضب مضافاً فيقال: ضب كدية، وهي الصلب من الأرضين، ومثله قولهم: ضب كلدة، وهي ما غلظ واشتد من الأمكنة، وهم أضافوا الضب إلى الكدية والكلدة بما أنه لا يحفر جحره إلا في صلابة من الأرض خشية أن ينهار عليه، ويضاف الضب أيضاً إلى السحا جمع سحاة وهي شجرة شائكة تأكل منها الضباب فتحسن على ذلك حالها .

ونظير ذلك قولهم: تيس الربل، والمراد به الذكر من الظّباء أو من الوعول، فأما الربل فهو شجر يتفطر في آخر القيظ بورق أخضر من غير مطر، وقالوا هو شيطان الحماطة، فالمراد بالشيطان الحية، وأما الحماطة فشجرة شبيهة بشجرة التين تألفها

الحيات، وقالوا: هي أرنب الخلة بضم الخاء، وهي شجرة شائكة تألفها الأرانب.

ويكون وجود الضباب بالمكان علامة على جدب المكان وقلة خيره، وعلى ذلك وصف حازم القرطاجني في مقصورته أرضاً بالرفاهة وأخرى بالبؤس فقال:

تجاورت أمواهها فما اشتكى
فيها امرؤ من ظمأ ولا اشتكى
لم تقتسم فيها المياه بالحسى
كقسمها في مأسل وذي حسى
ليست وأيم اللّه مثل بقعة
يجاور الأيم بها ضب الكدى
في كل واد ما به مستمع
ومطعم إلاكشيش وكُشَى

وصف الأولى بكثرة المياه ووفرتها، فالنازلون بها لا يظمأون، والمارون بها لا يحتاجون إلى التزود بالماء يجعلونه في الشكاء، ثم وصف ضدها فجعل أمارة سوء الحال بها أن تجاورت فيها الضباب والحيات، وجعل السائر فيها لا يسمع إلا كشيش الأفاعي ولا يطعم إلا الكشى وهي الشحوم التي تكون في بطون الضباب.

●●

غِذاء الضَبّ

يقتات الضب من النبات والفاكهة، وأحب شيء عنده من ذلك وأشهاه إليه التمر، ولذلك يحتال به المتحرشون على اصطياده، وفي ذلك يقول حذيفة بن دأب:

لئن خدعت حبى بسب مزعفر
فقد يخدع الضب المخادع بالتمر

والضب يقتات أيضاً من حشر الأرض وهوامها وخشاشها، ومن بين ما يقتاته من ذلك حسوله التي يأتي عليها أكلاً فور ما تخرج من البيض.

وهم ذكروا أن عنده مصابرة على الجوع لا يضاهيه فيها شيء من الحيوان غير الحيات، ثم زعموا فيه بعد ذلك أنه إذا بلغ الهرم تنسم الهواء فاكتفى به عن الغذاء وعاش عليه غير آكل ولا شارب، والحية تشاركه أيضاً في هذه العجيبة، وفي حيوان الجاحظ (ج 6 ص 56) ما نصه:

«والضب يشاركها (يعني الحية) في طول العمر، ثم الاكتفاء بالنسيم والتعيش ببرد الهواء، وذلك عند الهرم وفناء الرطوبات ونقص الحرارات...».

وأعاد شبه هذا الكلام في الحيوان (ج 6 ص129) فجاء بما لفظه:

«وإذا هرم اكتفى ببرد النسيم، وعند ذلك تفنى رطوبته فلا يبقى فيه شيء من الدم ولا مما يشبه الدم».

ثم عقب على ما تقدم بما جاء فيه عن أرسطو فقال:

«وأما صاحب المنطق فإنه قال: باضطرار إنه لا يعيش حيوان إلا وفيه دم أو شيء يشاكل الدم».

●●

عمر الضب

والضب موصوف عند الأعراب بطول العمر وانفساح الحياة وبعد الأجل، اشتهر عندهم بذلك وصار مضرب المثل فيه فقالوا: أحيا من ضب، وأعمر من ضب، مثلما قالوا: أعمر من نسر، وأعمر من حية، وأعمر من قراد.

وقدر بعضهم عمره بثلثمائة سنة، ورفع بعضهم سني عمره إلى سبعمائة سنة، فإلى ما فوقها، بل زعم آخرون أنه لا يموت حتف أنفه، وإنما يموت بآفة نازلة كأن يُقتل أو يُصاد.

وذكر رؤبة طول عمر الضب في رجز أجاب به امرأة خطب إليها نفسها فقالت له: ما سنك؟ ما مالك؟ ما كذا؟ فقال:

تسألني عن السنين كم لي
فقلت: لو عمرت عمر الحسل
أو عمر نوح زمن الفطحل
والصخر مبتل كطين الوحل
كنت رهين هرم أو قتل

الفطحل بزنة هزبر زمان لم يخلق فيه الناس بعد، أو هو

زمن النبي نوح عليه السلام، أو هو الزمان الذي كانت فيه الحجارة رطبة.

وتحدث الجاحظ في حيوانه (ج 6 ص 54) عن طول عمره فقال ما نصه:

«ومن أعاجيبه طول العمر، وذلك مشهور في الأشعار والأخبار، ومضروب به المثل، فشارك الحيات في هذه الفضيلة، وشارك الأفعى الرملية والصخرية في أنها لا تموت حتف أنفها، وليس إلا أن تقتل أو تُصاد».

وفي الدرة الفاخرة لحمزة الأصفهاني(ج 1 ص 313-314) ما لفظه:

«وأما قولهم: أعمر من ضب فحكى الزيادي عن الأصمعي أنه قال: يبلغ الحسل مائة عام ثم تسقط سنه فيسمى حينئذ ضباً».

وجاء في ثمار القلوب للثعالبي (ص332):

«والعرب تضرب المثل في الطول بعمر الضب وتعده من الحيوانات الطويلة الأعمار كالحية والنسر فتقول: لا أفعل ذلك ولا يكون هذا عمر الضب، وسن الحسل، ويقولون: فلان أعمر من الضب».

وذكر الزمخشري في كتابه المستقصى في الأمثال (ج 1 ص 90-91) بهذا الشأن ما نصه:

«يقال: إنه يتطوق كل مائة سنة طوقاً أبيض، وربما وجدت عليه عدة أطواق.

●●

طول ذماء الضب

الذماء هو ما بين القتل وخروج النفس، أو هو حركة القتيل واضطرابه إلى أن يهدأ بعد الموت، أو هو بقية النفس وبطء الموت.

وثمة حيوانات يطول ذماؤها بعد تعرضها للقتل بالذبح أو سواه من الأسباب التي تُودي بالحياة وتفتك بالحي فتكاً وَحِيّاً لا تراخي فيه.

والمذكور المشهور من أولئك الخنزير والكلب والحية والوزغة والخنفساء ودخال الأذن وهو تلك الدويبة الكثيرة الأرجل والتي يسميها عوام بعض البلاد العربية أم الأربعة والأربعين.

ومنها الضب وهو أعجبها في ذلك، وفيه جاء المثل: أطول ذماء من الضب.

وجاء في حيوان الجاحظ (ج 6 ص 54) وهو يذكر أعاجيب الضب ما نصه:

«أول ذلك طول الذماء، وهو بقية النفس وانعقاد الحياة والروح بعد الذبح وهشم الرأس والطعن الجائف النافذ، حتى

يكون في ذلك أعجب من الخنزير ومن الكلب ومن الخنفساء، وهذه الأشياء قد تفردت بطول الذماء.

ثم شارك الضب الوزغة والحية، فإن الحية تقطع من ثلث جسمها فتعيش إن سلمت من الذر، فجمع الضب الخصلتين جميعاً، إلا ما رأيت في دخال الأذن من هذه الخصلة الواحدة، فإني كنت أقطعه نصفين فيمضي أحد نصفيه يمنة والآخر يسرة، إلا أني لا أعرف مقدار بقائهما بعد أن فاتا بصري».

وذكر حمزة الأصفهاني في الدرة (ج 1 ص 286) طول ذماء الضب فأتى في ذلك بما لفظه:

«وأما قولهم: أطول ذماء من الضب فالذماء ما بين القتل إلى خروج النفس، ولا ذماء للإنسان، ويقال: الذماء بقية النفس وشدة انعقاد الحياة بعد الذبح وهشم الرأس والطعن الجائف، والتامور أيضاً بقية النفس، وبعضهم يفصح عنه فيجعله دم القلب الذي ما بقي يبقى الإنسان، فالضب يبلغ من قوة نفسه أنه يذبح فيبقى ليلته مذبوحاً مَفْرِيَّ الأوداج ساكن الحركة، ثم يطرح من الغد في النار، فإذا قدروا أنه قد نضج تحرك حتى يتوهموا أنه قد كان حياً وإن كان في العين ميتاً».

ومما جاءت به الأمثال في طول الذماء الحية لأنها قد يقطع منها نحو ثلثها من قبل ذنبها فتعيش بعد ذلك إن سلمت من شر الذر الذي يسارع إلى أكلها فور ما تكون مخدوشة أو جريحة.

وجاء المثل في طول الذماء بالخنفساء لأنها تشدخ فتتحرك

بعد الشدخ وتمشي مشياً قبل أن تفارق الحياة.

ومما ذكر في طول ذماء الخنفساء ما حكاه الجاحظ في حيوانه (ج 3 ص 500) فقال:

«قال الرقاشي: ذكرت صبر الخنزير على نفوذ السهام في جنبه فقال لي أعرابي: الخنفساء أصبر منه، ولقد رأيت صبياً من صبيانكم البارحة أخذ شوكة وجعل في رأسها فتيلة ثم أوقد فيها ناراً ثم غرزها في ظهر خنفساء حتى أنفذ الشوكة، فغبرنا ليلتنا وإنها لتجول في الدار وتصبح لنا، واللّه إني لأظنها كانت مُقْرِباً لانتفاخ بطنها».

وهم سكتوا عن أن يضربوا الأمثال في ذلك بالخنزير والكلب والوزغة وإن كانت أذماؤها تمتد وتطول.

●●

صيد الضب

ذكر أعرابي حبيبته فكان ذكرها فألاً له في اصطياد ضب فقال :

ذكرتك ذكرة فاصطدت ضبا   وكنت إذا ذكرتك لا أخيب

ويقال: حرشت الضب واحترشته وتحرشته وتحرشت به إذا احتلت عليه لتصيده.

وحرشه أن تأتي إلى قفا جحره فتقعقع عنده بعصا أو بحجر فيحس ذلك منك فيخرج مذنباً فتمسك منه بذنبه فتستله من جحره.

ويكون الحرش أيضاً بأن يُمَسِّح الحارش على فم جحره بيده تمسيحاً مسموعاً فيسمع الضب حس ذلك التمسيح فيقبل نحوه يحسبه من دابة أو حية فيمسك به المحترش ويأخذه.

وقد يصاد بإسالة الماء إلى جحره ليضطر بذلك إلى الخروج، وصيده على هذا النحو يسمى التذليق، ويقال منه ذلقت الضب تذليقا، وأذلقته، واستذلقته إذا فعلت به ذلك.

أنشد أبو عثمان سعيد بن هارون الأشناندانى في كتابه

معاني الشعر (ص 211) قول الشاعر:

فلم تعـد منهـا مـوطىء الضب مـاثـلا
ولـم يـطق التـذليـق منهـا المضبب

ثم شرحه فقال:

«يصف سحابة لم يبلغ مطرها أن يكون ثراه مقدار موطىء الضب قائماً، لأنه لا بد إذا مثل أن يثبت برائنه في الأرض، وإذا مشى خففها، والتذليق أن تسيب الماء إلى جحر الضب حتى تستخرجه، والمضبب الذي يذلق الضب فيستخرجه».

وجاء في معاني الشعر للأشنانداني (ص 211) مرة أخرى ما نصه:

«أخبرنا ابن دريد قال: أنشدني أبو عثمان:

بشـر يـرابيـع المـلا وضبـابهـا
أن قـد هـوى شكـل بن قيس ثـاويـا
قـد كـان يـذلقهـا ويـرهق بعضهـا
غـنظ المـنيـة رائـحـا ومغـاديـا

ثم قال يشرح ذلك:

«يعني رجلاً قتل، ويعيره بأنه كان يأكل الضباب واليرابيع، يقول: فبشر الضباب واليرابيع بقتله.

«وقوله: يرهق بعضها أي يغشيه غنظا، والغنظ الكرب، يقال: غنظ يغنظ غنظا إذا اشتد كربه، يريد أنه يذلق الضباب ويحفر عن اليرابيع حتى يستخرجها فقد غنظها أي كربها».

«وقوله: (قد كان يذلقها) يقال: أذلقت الضب إذا صببت في جحره ماء حتى يخرج».

وذكر بعض الأعراب احتراش الضب في سجعات فقال مفتخرا:

«رب ثدي قد افترشته، ونهب قد احتوشتـه، وضب قد احترشته».

●●

جزاء الضب إذا أصابه المحرم

إذا أصاب المحرم الضب كان عليه جزاؤه، وجزاؤه ما جاء في المصنف لعبد الرزاق بن همام الصنعاني (ج 4 ص 402) عن طارق بن شهاب قال:

«خرجنا حجاجاً، فإذا نحن بحيات كأنهن قدور تغلي فقتلناها، قال: وأوطأ رجل منا بعيره ضبا فدق صلبه، فسألت عمر بن الخطاب عن الحيات فقال: قتلت عدواً، وسألناه عن الضب فالتفت الي وإلى رجل فقال: أترون أن جدياً قد بلغ الماء والشجر يجزيه قال: نعم، فأمره به».

وفي مصنف عبد الرزاق أيضاً (ج 1 ص 402 -403) عن مجاهد قال:

«في الضب حفنة من طعام، لأن رسول الله ﷺ لم يأكله، قال عبد الرزاق: حفنة يعني ملء كف» .

وفي كتاب الحج الثاني من المدونة (ج ص 443) ما نصه:

«قلت لابن القاسم: أرأيت الضب واليربوع والأرنب وما أشبه هذه الأشياء إذا أصابها المحرم؟ قال: قال مالك: عليه الجزاء، يحكم فيها بقيمتها طعاماً، فإن شاء الذي أصاب ذلك أطعم كل مسكين مدا، وإن شاء صام لكل مد يوماً، هو عند مالك بالخيار».

أكلُ الضَبّ

العرب تستطيب أكل الضب، ولا سيما بعض أجـزائه، ومنها كشيته وذنبه، ولذلك قال شاعر يذكر أن بَلِيَّةَ الضب جاءته من طيب كشيته ولذاذة ذنبه:

فــلو كــان هــذا الـضــب لا ذَنَــبٌ لــه
ولا كـشـيــة مــا مـــسـه الــدهــر لامس
ولــكـنــه مــن أجــل طـيــب ذنـيـبــه
وكــشــيــتــه دبــت إلــيــه الــدهــارس

الدهارس المصائب والدواهي.

وقال آخر:

انـك لـو ذقت الكشى بـالأكبـاد
لمـا تركت الضب يعـدو بـالـواد

يقول: لو تذوقت لذة الكشية لأمعنت في اصطياد الضباب حتى لا ترى منها واحداً يعدو بالوادي.

ومن أطيب ما في الضب عقنقله، وهو أول شواية منه، ومن ثم قيل في الحث على المواساة: أطعم أخاك من عقنقل الضب.

وقد لا يترك الجوع لآكل الضب اختيارا فيأكله الجائعون أكلاً لَمّاً لا يبقي ولا يذر، وفي لغتهم: (أكل الضب بقليته) أي أكله أكلاً مستوعباً لحماً وعظماً وجلداً.

التعيير بأكل الضب

ويكون أكل الضب علامة على البداوة والجفاء وخشونة العيش وشظفه، جاء في كتاب معاني الشعر لأبي عثمان الأشنانداني (ص 156) ما نصه:

«أخبرني ابن دريد قال: أنشدني أبو عثمان:

بشر يرابيع الملا وضبابها
أن قد هوى شكل بن قيس ثاويا
قد كان يذلقها ويرهق بعضها
غنظ المنية رائحاً ومغاديا

يعني رجلاً قتل، ويعيره بأنه كان يأكل الضباب واليرابيع يقول: فبشر الضباب واليرابيع بقتله».

وقال أبو نواس من أبيات:

إذا ما تميمي أتاك مفاخرا
فقل عَدِّ عن ذا، كيف أكلك للضب؟

وكان شهاب الدين أبو الفوارس محمد بن محمد بن سعد الشاعر الملقب بحيص بيص يتبادى في زيه وعيشه، فاستثقل ذلك منه هبة الله بن الفضل المعروف بابن القطان فقال فيه هازئاً ساخراً:

كم تبادى وكم تطول طرطو
رك ما فيك شعرة من تميم
فكل الضب واقرض الحنظل اليا
بس واشرب ما شئت بول الظليم
ليس ذا وجه من يجير ومن يقـ
ـري ومن يدفع الأذى عن حريم

فأجابه الحيص بيص على قوله هذا جواب الحليم فقال:
لا تضع من عظيم قدر وإن كنـ
ـت مشاراً اليه بالتعظيم
فالشريف الكريم ينقص قدرا
بالتعدي على الشريف الكريم
ولع الخمر بالعقول رمى الخمـ
ـر بتنجيسها وبالتحريم

حِلِّيَّةُ الضب

والضب من المأكول الحلال، تشهد لحليته أحاديث صحاح، منها ما أخرجه مسلم في كتاب الصيد والذبائح من صحيحه قال:

«حدثنا يحيى بن يحيى قال: قرأت على مالك عن ابن شهاب عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عبد اللّه بن عباس قال: دخلت أنا وخالد بن الوليد مع رسول اللّه ﷺ بيت ميمونة، فأتى بضب محنوذ، فأهوى اليه رسول اللّه ﷺ بيده، فقال

بعض النسوة اللاتي في بيت ميمونة: أخبروا رسول الله ﷺ بما يريد أن يأكل، فرفع رسول الله ﷺ يده، فقلت: أحرام هو يا رسول الله؟ قال: لا، ولكنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه، قال خالد: فاجتررته فأكلته ورسول الله ﷺ ينظر».

وفي كتاب الصيد والذبائح من صحيح مسلم أيضاً:

«حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا علي بن مسهر، عن الشيباني، عن يزيد بن الأصم، قال: دعانا عروس بالمدينة، فقرب الينا ثلاثة عشر ضبا، فَآكِلٌ وتَارِكٌ، فلقيت ابن عباس من الغد فأخبرته، فأكثر القوم حوله حتى قال بعضهم: قال رسول الله ﷺ: لا آكله، ولا أَنْهَى عنه، ولا أحرمه، فقال ابن عباس: بئس ما قلتم، ما بعث نبي الله ﷺ إلا محلاً ومحرماً، إن رسول الله ﷺ بينما هو عند ميمونة وعندها الفضل بن عباس وخالد بن الوليد وامرأة أخرى إذ قرب إليهم خوان عليه لحم، فلما أراد النبي ﷺ أن يأكل قالت له ميمونة: إنه لحم ضب، فكف يده، وقال: هذا لحم لم آكله قط، وقال لهم: كلوا فأكل الفضل وخالد بن الوليد والمرأة، وقالت ميمونة: لا آكل من شيء إلاَّ شيئاً يأكل منه رسول الله ﷺ».

وجاء في كتاب الجامع من آخر الموطأ:

«حدثني مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن سليمان بن يسار أنه قال: دخل رسول الله ﷺ بيت ميمونة بنت الحارث فإذا ضباب فيها بيض، ومعه عبد الله بن عباس وخالد بن الوليد فقال: من أين لكم

هـذا ؟ فقالت : أهـدته لي أختي هـزيلة بنت الحارث ، فقـال لعبد اللّه بن عباس وخالد ابن الوليد : كلا ، فقالا : ألا تأكل أنت يا رسول الله فقال : إني تحضرني من الله حاضرة . . . » . .

وفي كتاب الجامع من الموطأ أيضاً:

«حدثني مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أن رجلاً نادى رسول الله فقال: ما ترى في الضب فقال رسول اللّه ﷺ: لست بآكله ولا بمحرمه».

وفـي مصـنف عبـد الـرزاق بن هـمـام الصنعـانـي ج 4 ص 97-98) ما نصه :

«عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن ابن المسيب أن رجلاً راعياً شكا إلى عمر بن الخطاب الجوع بأرضه ، فقال له عمر : أليست بأرض مضبة؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين، قال عمر: ما أحب أن لي بالضباب حمر النعم».

وفيه أيضاً (ج 4ص 512) :

«عبد الرزاق عن معمر عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري قال: سمعته يقول: كنا معشر أصحـاب محمـد ﷺ لأن يهدى إلى أحـدنا ضب مشـوي أحب إليه من دجاجة».

وجـاء في شـرح النـووي على صحيـح مسلم (ج 13 ص 97 - 98) ما نصه:

«أجمع المسلمون على أن الضب حلال ليس بمكروه إلا ما حكى عن بعض أصحاب أبي حنيفة من كراهته، وإلا ما حكاه

القاضي عياض عن قوم أنهم قالوا هو حرام، وما أظنه يصح عن أحد، وإن صح عن أحد فمحجوج بالنصوص وإجماع من قبله».

وما أحسن ما استعمل أبو الحسن علي بن محمد بن عبد اللّه البهراني الحمصي حمص الأندلس قوله عليه السلام في الضب (لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه) فيما حكاه عنه السلفي في معجم السفر فقال:

«أبو الحسن البهراني هذا من أفصح من يرى وأكثرهم حفظاً للأخبار والأشعار وأحسنهم إيراداً، قدم علينا الإسكندرية، وكان يحضر عندي، وعلقت عنه فوائد كثيرة يغتبط بها، وكان يوماً حاضراً عندي وأجرى جماعة من الفقهاء ذكر الكلام وقيل له: هل قرأت منه شيئاً؟ فقال: لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه».

●●

أصدقاء الضب وأعداؤه من الحيوان

للضب أصدقاء من الحيوان يألفها ويأنس بها، وله منه أعداء يتقيها ويحذر شرورها، فلنقدم للقارىء بعض ما جاء عن العرب في ذلك من أنباء.

والظربان يأتي في مقدمة أعداء الضب المتربصين به السوء، والظربان هذا دويبة منتنة الريح كريهته، وأنتن ما فيها فَسْوُها، والظربان يعدو على الضب بالهجوم على بيته، ثم يقف بأضيق مكان منه فيسده ببدنه سداً مطبقاً وهو مستدبر جهة الضب، ثم يرسل عليه الفسوة بعد الأخرى، فما يلبث إلا قليلاً حتى يخر مغشياً عليه من ذلك، ثم يتقدم إليه فيأكله، ثم يقيم بعدها في الجحر فلا يبرحه حتى يأتي على آخر حسوله أكلا.

والورل عدو آخر من أعداء الضب المتسلطين عليه بالشر والأذى، ومن عدوانه عليه أنه يقتحم عليه بيته فلا يغادره حتى يقتله ويأكل حسوله.

وتعد الحية في أعداء الضب أيضاً، وفي عداوة ما بينهما يتحدث الجاحظ في حيوانه (ج 6 ص 121) فيقول ما نصه:

«والضبة تقاتل الحية وتضربها بذنبها، وهو أخشن من

السُّفَن، وهو سلاحها، وقد أعطيت فيه من القوة مثل ما أعطيت العقاب في أصابعها، فربما قطعتها بضربة أو قتلتها أو قدتها، وذلك إذا كان الضب ذيالاً مذنباً، وإن كان مرائساً قتلته الحية».

والعقرب ـ فيما زعمت العرب ـ صديقة الضب وحميمته، وهو يؤويها في جحره ويمسك عن إذايتها في أولادها، وتمسك هي من جانبها عن لدغه، وفي أنس الضب بالعقرب وأنسها به يقول الشاعر:

أتأنس بي ونجرك غير نجري
كما أنس العقارب والضباب

وللضب في العقرب ـ فيما زعموا ـ مأرب وحاجة، فهو يستدفع بها كيد صائده، وذلك أنه يستثفرها، فإذا أخذ الحارش بذنبه ليخرجه من جحره لسعته العقرب لسعا فيرسله انشغالاً بما أصابه، وفي ذلك يقول الشاعر:

وأخدع من ضب إذا خاف حارشا
أعد له عند الذنابة عقربا

وقال الشريف الرضي مشبهاً في رجل مطبوع على الإساءة:

إساءته شهوة ثرة   وإحسانه درة الأرنب
وقد زيد شرا الى شره   كما استثفر الضب بالعقرب

●●

الضب في ألسنة الشعراء

تعرضت طائفة من الشعراء لذكر الضب في أشعار مستطرفة أحببت أن أقدم منها للقارىء التفاريق التالية :

في صفة خلقه

كان خالد بن عبد اللّه القسري وَلَّى حمران ذا الغصة بعض البوادي، فلما كان المهرجان أهدى عمال النواحي ما جرت عادة العمال بإهداء مثله في تلك المناسبة، لكن حمران أغرب في هديته إلى خالد فبعث إليه قفصاً ملأه ضباباً، وكتب إليه مع الهدية بالأبيات الآتية :

جبى المال عمال الخراج وجبوتي
محلقة الأذناب صفر الشواكل
رعين الدبا والبقل حتى كأنما
كساهن سلطان ثياب المراجل
ترى كل ذيال إذا الشمس عارضت
سما بين عرسيه سمو المخايل
سبحل له نزكان كانا فضيلة
على كل حاف في البلاد وناعل

الجبوة بكسر الجيم وسكون الباء ما يجبى، والشواكل جمع شاكلة، وهي الخاصرة، والدبا أصغر الجراد، والمراجل صنف من البرود يصنع باليمن، والذيال الطويل الذيل، والمخايل الذي يخايل غيره اسم فاعل من المخايلة بمعنى المباراة والمفاخرة، والسبحل المسن الضخم من الضباب، والنزك بفتح النون وكسرها ذكر الضب.

ووصفه الحماني الشاعر وصفاً مصيباً وهو يذكر أرضاً فقال:

تـرى ضبهـا مـطلعـاً رأسـه كمـا مـد سـاعـده الأقـطع
لـه ظاهـر مثـل بـرد مـوشى وبطن كمـا حسـر الأصلع
هـو الضب مـا مـد سكـانـه وإن ضمـه فهـو الضفـدع

السكان بوزن رمان ذنب السفينة.

في كيسه واحتياطه

قال شاعر يذكر حزمه وكيسه ولطف احتياله وما يدبره في أمر مسكنه اتقاء الآفات والأخطار:

وبعض الناس أنقص رأي حزم
من اليربوع والضب المكون
يرى مرداته من رأس ميل
ويأمن سيل بارقة هتون
ويحفر في الكدى خوف انهيار
ويجعل مكوه رأس الوجين

ويخدع إن أردت له احتبالا
رواع 'الفهد من أسد كمين
ويدخل عقرباً تحت الذنابى
ويعمل كيدُ ذي خدع طبين

المكون الضبة التي جمعت المكن في بطنها، والمكن بيضها، والمرداة الصخرة التي يرمى بها، ومن عادة الضب أنه لا يحفر جحره إلا بالقرب من صخرة يجعلها علامة عليه يهتدي بها إذا عاد من طلب القوت، والمكو جحر الثعلب والأرنب والضب وأشباهها، والوجين سند الجبل، والعارض من الأرض إذا ارتفع قليلاً، والأرض الغليظة الصلبة، والطبين صفة من الطبانة وهي شدة الفطنة.

في استطابة أكل الضب

لأبي الهندي عبد المومن بن عبد القدوس من مخضرمي الدولتين:

أكلت الضباب فما عفتها
وإني لأهوى قديد الغنم
وركبت زبدا على تمرة
فنعم الطعام ونعم الأدم
ولحم الخروف حنيذا وقد
أتيت به فائرا في الشبم
فأما البهط وحيتانكم
فما زلت منها كثير السقم

وقـد نـلت ذلـك كـمـا نـلتـم
فـلم أر فـيـهـا كـضـب هـرم
ومـا في البيـوض كبيض الـدجـاج
وبـيض الـجـراد شـفـاء الـقـرم
ومـكن الـضبـاب طعـام العـريـب
ولا تـشتـهـيـه نـفـوس الـعـجـم

الحنيذ المشوي، والفائر الحار، والشبم البرد، فأما البهط فهو الأرز مطبوخاً باللبن والسمن.

وقال الآخر:

أقـول لـه يـومـا وقـد راح صحبتي
وبـالـلّه أبـغـي صـيـده وأخـاتـله
فـلمـا التقت كـفي عـلى فـضـل ذيـله
وشـالت شمـالي زايـل الضب بـاطله
فـأصبـح محنـوذا نضيجا وأصبحت
تـمشي على الـقـيـزان حُـولاً حـلائـله
شـديـد اصـفـرار الكشيتين كـأنـمـا
تـطلى بـورس بـطنـه وشـواكـله
فـذلـك أشهى عنـدنـا من بيـا حـكم
لـحـى الـلّه شـاريـه وقـبـح آكـله

القيزان جمع القوز وهو المستدير من الرمل، وهو أيضاً الكثيب المشرف، والحول جمع الحائل وهي الأنثى التي لم تحبل، والحلائل جمع حليلة وهي الزوجة، يقول إنه باصطياده

الضب ترك زوجاته أيامى لا يحبلن، فأما البياح فهو ضرب من السمك.

ومن ذلك قول أبي حجين المنقري:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بأسفل واد ليس فيه أذان
وهل آكلن ضباً بأسفل تلعة
وعرفج أكماع المديد خِوَاني
أقوم إلى وقت الصلاة وريحه
بكفيَّ لم أغسلهما بشنان

العرفج نبات، والأكماع جمع كمع وهو المكان من الأرض ترتفع أطرافه، وتطمئن أوساطه، والمديد اسم موضع والخوان ما يوضع عليه الطعام، والشنان أراد به الأشنان هذا الذي تغسل به الأيدي بعد الطعام.

وقول الآخر:

لعمري لضب بالعنيزة صائف
تضحى عرادا فهو ينفخ كالقرم
أحب إلينا أن يجاور أرضنا
من السمك البني والسلجم الوخم

تضحى أكل في وقت الضحى، والعراد نبت تألفه الضباب، والقرم بفتح فكسر الفحل من الإبل الذي يترك للفحلة.

في التشبيه بالضب والمماثلة به

وفي طبقات الشعراء لابن المعتز (ص 272-273) ما حكايته:

اجتمع يوماً من الأيام عند عيسى بن عمر أبو محمد اليزيدي، وسلم الخاسر، فقال سلم لليزيدي: اهجني على روي امرىء القيس:

رب رام من بني ثعل مخرج كفيه من ستره

فقال له أبو محمد وكان عفيفاً تقياً: ما لك ولهذا؟ قال سلم: كذا أريد، قال اليزيدي: ما أغناك عن التعرض للشر، فلتسعك العافية، وأراد سلم أن يوهم عيسى أنه عيي مفحم لا يقدر على الشعر، قال سلم: انك لتحتجز مني غاية الاحتجاز وهاجه، قال عيسى: باللّه يا أبا محمد إلا فعلت فأخذ نعله وقلبها وكتب تحتها:

رب مغموم بعافية غمط النعماء من أشره
وامرىء طالت سلامته فرماه الدهر من غيره
بسهام غير مُشْوِيَةٍ نقضت منه عرى مرره
وكذاك الدهر منقلب بالفَتى حالين في عصره
يخلط العسر بميسرة ويسار المرء في عسره
عق سلم أمه سفها وأبا سلم على كبره
كل يوم خلفه رجل رامح يسعى على أثره
يولج الغرمول سبته كولوج الضب في جحره

قال سلم: هكذا والله يكون استدعاء الشر، ما كان أغناني عن هذا.

وقال الفرزدق يعني زوجه النوار وكانت قد نشزت عليه:

تخاصمني وقد أولجت فيها
كرأس الضب يلتمس الجرادا

ووصف ابن أبي عيينة المهلبي البصرة فذكر من فضائلها أنها تواجدت فيها الأشياء المتضادة والمتنافرة، فكان ذلك أجمع لفوائدها، وأوفر لعوائدها فقال:

ياجنة فاقت الجنان فما
تبلغها قيمة ولا ثمن
ألفتها فاتخذتها وطنا
إن فؤادي لحسنها وَطن
زوج حيتانها الضباب بها
فهذه كنة وذا ختن
فانظر وفكر فيما يطيف بها
إن الأريب المفكر الفطن
من سفن كالنعام مقبلة
ومن نعام كأنها سفن

وقال أيضاً يذكر قصر عيسى بن جعفر بن سليمان بالخريبة:

يا وادي القصر نعم القصر والوادي
لا بد من زورة للقصر والوادي

زره فـليس لـه شـبـه يـقـاربـه
من منـزل حـاضـر إن شئت أو بـادي
تـرى قـراقـيـره والـعـيس واقـفـة
والضب والنـون والمـلاح والـحـادي

ولخالد بن علقمة بن مرثد المعروف بابن الطيفان:

ومـولـى كـمـولـى الـزبـرقـان دملتـه
كـمـا دملت سـاق تـهـاض بـهـا وقـر
إذا مـا أحـالـت والـجـبـائـر فـوقـهـا
أتـى الحـول لا بـرء مـبـيـن ولا كـسـر
تـرى الـشـر قـد أفـنـى دوابـر وجـهـه
كـضب الـكـدى أفنـى بـراثنـه الـحفـر

المـولى في الشعر يـراد به ابن العم، والـدمل إصـلاح الفساد، والوقر الكسر، والهيض كسر بعد جبر، يصفه بأنه لا يقبل الانصلاح، وأن التحلم عنه والتصبر عليه وحسن المداراة له لا تجدي فيه شيئاً.

وجاء في معجم الأدباء لياقوت (ج 5 ص 145) وهو يترجم أحمد بن يحيى النحوي الملقب بثعلب ما نصه:

«قرأت في أمالي أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري: أنشدنا أبو بكر لأحمد بن يحيى النحوي:

إذا كـنت قـوت الـنفس ثـم هـجـرتـهـا
فـكم تـلبث الـنفس الـتي أنـت قـوتـهـا

ستبقى بقـاء الضب في المـاء أو كمـا
يعيش لـدى ديمـومـة البيـد حـوتهـا»

ومن شعر الزبرقان بن بدر:

ومن الموالي موليـان فمنهما معطي الجزيل وباذل النصر
ومن المـوالي ضب جنـدلـة لَحِزُ المروءة ظـاهـر الغِمْـرِ

وقال الأمير الفـاطمي تميم بن المعز يمـدح أخاه نـزارا الملقب بالعزيز ويذكر ظفره بأفتكين التركي من قصيدة:

ولـم يـك كـفـأك فـي حـربـه
وإن كـان فـي بـأسـه الـمـنـتـهـى
ولـسنـا نـقـيس الـهـدى بـالـضـلال
ولا نـجـعـل الـليـث ضَـبَّ الـكـدى
وبـيـنـكـمـا فـي الـعـلا والـوغـى
كـمـا بيـن شمس الـضحـى والسُّـهَـا

وقال أبو الطيب المتنبي من قصيدة سيفية:

لـقـد لعـب البين الـمشـت بهـا وبـي
وزودنـي فـي الـسيـر مـا زود الـضـبـا

وقال الواحدي في شرح البيت:

« إنما قال لعب إشارة الى اقتدار البين عليهم ، لأن القادر على الشيء لا يحتاج إلى استفراغ أقصى وسعه في تقليبه على مراده، والضب لا يتزود في المفازة.

يقول: جعل البين زادي زاد الضب أي لم يزودني شيئاً،

ومعناه أني فارقت الحبيب من غير التقاء ولا وداع يكون لي زادا على البعد.

ويجوز أن يكون المعنى أن الضب مكانه المفازة، فلا يتزود إذا انتقل فيها، يقول أنا في البين مقيم إقامة الضب في المفازة، وليس من رسم المقيم أن يتزود أي فالسير والبين كأنهما لي منزل لإلفي إياهما.

وقال ابن فورجة: أي زودني الضلال عن وطني الذي خرجت منه، فما أوفق للعود إليه والاجتماع مع الحبيب، والضب يوصف بالضلال وقلة الإهتداء إلى جحره» ؟ .

ومن بارع شعر الأديب الأندلسي أبي الحسن حكم بن محمد غلام البكري، وذكر فيه سقوط سن الحسل تمثيلاً في التأبيد فقال:

ألاحت وللظلماء من دونها سدل
عقيقة برق مثل ما انتضي النصل
أطارت سناها في دجاها كأنها
تبلج خد حوله فاحم جثل
لدى ليلة رومية حبشية
تغازلنا من شهبها أعين نجل
تود عيون الغانيات لوآنها
إذا مرضت عند الصباح لها كحل
بدت في حلاها فاتقينا نجومها
بأنجم راح في الشفاه لها أفل

إلى أن بـدا للصبـح في طـرة الـدجى
دبيب كمـا استقرت مـدارجهـا النمـل
نـعيـم أرى الأيـام تـثـنـي عـنـانـه
علينـا إذا ألقى ثَنِيَّتَـه الحِسْـلُ

وعير عبدة بن الطبيب يحيى بن هزال وضرب الضب مثلاً في كِبْره وتنفجه فقال:

لأعـرفـنـك يـوم الـورد ذا لـغط
ضخـم الجـزارة بـالسـلميـن وكـار
تكفي الـوليـدة والـرعيـان مؤتـزرا
فـاحـلب فـإنـك حـلاب وصـرار
مـا كـنت أول ضـب صـاب تـلعتـه
غيث فـأمـرع واستـرخـت بـه الـدار

الجزارة القوائم، وعنى بها يديه ورجليه، والسلم بفتح السين وسكون اللام الدلو، والوكار صيغة مبالغة من قولهم وكر الدلو والسقاء والقربة إذا ملأها، والصرار الذي يصر ضرع الناقة لئلا يرضعها الفصيل أو يحتلبها الحالب، فأما قوله: استرخت به الدار فهو عبارة عن كونه قد أصبح في رخاء ونعمة وسعة حال.

وقال أبو أسيدة الدبيري:

وإن لـنـا شيـخيـن لا ينـفـعـانـنـا
غـنيين لا يـجـدي عـلينـا غـنـاهـمـا
كـأنـهـمـا ضـبـان ضـبـا مـغـارة
كـبيـران غيـداقـان صفـر كشـاهـمـا

فإن يحبلا لا يوجدا في حبالة
وإن يرصدا يوما يخب راصداهما

الغيداق من الضباب الضخم المسن، والكشية شحمة الضب.

وقال العملس بن عقيل في أبيه عقيل بن علفة:

أكلت بنيك أكل الضب حتى
وجدت مرارة الكلأ الوبيل
فلو كان الألى غابوا شهودا
منعت فناء بيتك من بجيل

كان عقيل بن علفة والد العملس قد طرد بنيه فتفرقوا في البلاد، وكان وهم معه ذا منعة مرهوب الجانب، فلما توحد هان أمره على الناس، فحدث أن تجرأ عليه رجل من بني صرمة لا شأن له يسمى بجيلا، فجعل عقيل يصيح مستصرخاً ببنيه يحسبهم إلى جانبه لما كان قد أصابه من الخرف بسبب هرمه، وعلم ابنه العملس بما جرى عليه من بجيل فقال فيه الشعر السابق.

وقال أبو دارة من معاصري الجاحظ وكان صاحب قنص وصيد:

وما التمر إلا آفة وبلية
على جل هذا الخلق من ساكن البحر
وفي البر من ذئب وسِمْع وعقرب
وثرملة تسعى وخنفسة تسري

وقــد قيــل في الأمثــال إن كنــت واعيــاً
عــذيــرك إن الـضب يـختــل بــالـتمــر

السمع بكسر السين وسكون الميم ولد الذئب من الضبع فيما زعموا، وذكروا عنه أنه لا يموت حتف أنفه، وأنه أسرع من الطير، وأن وثبته تزيد على ثلاثين ذراعاً، فأما الثرملة فهي الأنثى من الثعالب، وهي بضم الثاء والميم.

وفي عيون الأخبار لابن قتيبة:

حدثني يزيد بن عمرو قال: حدثني القاسم بن الفضل قال: حدثني رجل من بني جرير أن رجلاً منهم خاصم رجلاً إلى سوار بن عبد اللّه فقضى على الجريري، فمر سوار ببني جرير فقام إليه الجريري فصرعه وخنقه وجعل يقول:

رأيت أحــلامــاً فعبــرتهــا وكـنـت لــلأحــلام عـبــارا
رأيـتـني أخنـق ضبــا عـلى جحـر فكـان الضب سـوارا

وقال جرير من قصيدة:

وجـدنا بيت ضبـة في تميم كبيت الضب ليس له سواري

ولبعضهم ذامّاً:

يــقـلب رأســاً لــم يـكــن رأس سـيــد
وكـفــا ككـف الـضـب بــل هـي أحـقــر

وقال البطين بن أمية:

وكــل شـيء مـصـيـب في تـعـيـشــه
الضب كــالنـون والإنســان كــالسبــع

وقال أبو إسحاق الصابي:

الضب والنون قد يرجى اجتماعهما
وليس يرجى التقاء اللب والذهب

وقال الحريري من أبيات أودعها بالمقامة المروية وهي الثامنة والثلاثون في ترتيب المقامات:

والحمد والبخل لم يقض اجتماعهما
حتى لقد قيل ذا ضبا وذا حوتا

ذكر الضبّ في وصف شدة الحر

والضب من أصبر الحيوان على الحرارة وأكثره احتمالاً للفحها، ومن ثم أكثر الشعراء من ذكره في وصف الهواجر والقيوظ، ومما جاء في ذلك قول أبي زبيد الطائي من قصيدة:

أي ساع سعى ليقطع شربي
حين لاحت للصابح الجوزاء
واستكن العصفور كرها مع الضـ
ـب وأوفى في عوده الحرباء
ونفى الجندب الحصى بذراعيـ
ـه وأذكت نيرانها المعزاء
من سموم كأنها لفح نار
سجرتها الهجيرة الغراء

الشرب بكسر الشين وسكون الراء النصيب من الماء، والصابح الذي يإيُورِدُ إبله في أول النهار، والمعزاء الأرض الغليظة ذات الحجارة.

وقال آخر :

سـار أبـو مـسـلم عـنـهـا بـصـرمـتـه
والضب في الجحـر والعصفـور مجتمـع

الصرمة القطعة من الإبل .

وقال ذو الرمة :

تجـاوزت والعصفـور في الجحـر لاجىء
مـع الضب والشقـذان تسمـو صـدورهـا

الشقذان الحرابي وقوله : تسمو صدورها معناه ترتفع في رؤوس العيدان .

●●

الضَبّ في الأَمثال

كانت العرب قديماً من أكثر الأمم مخالطة للحيوان واستئناساً به وملاحظة عليه، وهم كثيراً ما يحاكون بأحواله، ويضاهون بأوصافه في هبوط النقص أو زيادة الكمال حين يذمون أو يمدحون.

والضب مما تولعوا به في هذا الشأن وأكثروا فيه من قول الأمثال، ولعل ذلك كان منهم فيه لغريب طباعه وشاذ سلوكه، ولما اجتمع فيه من تناقض الصفات وتباين الحالات.

وكنت قد فتشت مجامع الأمثال ودواوين الأدب وكتب الحيوان حتى استخرجت من الأمثال الضبية بضع عشرات هي ما أقدم الآن للقارىء مرتبة على الهجاء، متبوعة بما يكفي من شرح وتبيين، مع التنبيه على مضاربها ومواضع التمثل بها.

أبله من ضب

أورده اليوسي في زهر الأكم (ج 1 ص 204-205) وكتب فيه ما نصه ببعض تصرف:

«يقال بله بكسر اللام يبله بلها أو بلاهة فهو أبله، والبله الغفلة، والضب بالضاد المعجمة الدويبة المعروفة، وهو يضرب

به المثل في أمور كثيرة مثل البله والعقوق والخديعة، وإنما ضرب به المثل في البله والذهول لما يزعمون من أن في طبعه الحيرة والنسيان وعدم الهداية، قالوا: ولذلك يحفر بيته في كدية وموضع مرتفع لئلا يضل عنه إذا خرج لابتغاء الطعم ورجع».

أجبن من ضب

معناه ظاهر بين.

أحذر من ضب حرشته

هو ظاهر المعنى بَيِّن المراد.

أحير من ضب

وصفوه بالحيرة لما بينه الدميري في حياة الحيوان فقال:

«وفي طبعه النسيان وعدم الهداية، وبه يضرب المثل في الحيرة، ولذلك لا يحفر جحره إلا عند أكمة أو صخرة لئلا يضل عنه إذا خرج لطلب الطعم».

وفي حيوان الجاحظ (42:6) مما يتعلق بهذا الشأن ما نصه:

«ولما علم أنه نساء سَيِّئ الهداية لم يحفر وجاره إلا عند أكمة أو صخرة أو شجرة ليكون متى تباعد من جحره لطلب الطعم أو لبعض الخوف فالتفت ورآه أحسن الهداية إلى جحره، ولأنه إذا لم يقم علماً فلعله أن يلج على ظربان أو ورل فلا يكون دون أكله له شيء».

أحيا من ضب

هو اسم تفضيل من الحياة التي هي ضد الموت.

يضرب مثلاً في طول العمر وامتداد الحياة وبعد الأجل، لأن الضب عند العرب موصوف بطول العمر، وعندهم أنه لا يموت حتف أنفه وإنما يهلك بآفة أو نازلة.

أخب من ضب

أورده حمزة الأصفهاني في الدرة: (ج 1 ص 192) وكتب فيه ما لفظه:

«وأما قولهم: أخب من ضب فقد اشتقوا منه «فلان خب ضب» وقال بعض أصحاب المعاني: قولهم: «أخب من ضب» أي من ذي ضب أي أغش من ذي عداوة لأنهم يعنون بذلك خدع الضب في جحره».

أخدع من ضب

جاء في تهذيب الأزهري:

«ومن أمثال العرب: أخدع من ضب حرشته، وهو من قولك: خدع مني فلان إذا توارى ولم يظهر».

وقال العسكري في شرحه:

«يعنون تواريه في جحره، والتخدع التواري، ومن ثم قيل المخدع لبيت يخبأ فيه الشيء، وقيل معناه أن جحره قلما يخلو من عقرب، فإذا أدخل المحترش يده لدغته وأنشدوا:

وأخدع من ضب إذا خاف حارشا

أعد له عند الذنابة عقربا

أخذه أخذ الضب ولده

شرحه الميداني في أمثاله فقال:

«أي أخذه أخذة شديدة أراد بها هلكته، وذلك أن الضب يحرس بيضه عن الهوام، فإذا خرجت أولاده من البيض ظنها بعض أحناش الأرض فجعل يأخذ ولده واحداً بعد واحد ويقتله فلا ينجو منه إلا الشريد».

إذا أخذت بذنبة الضب أغضبته

أورده الميداني في أمثاله وكتب عليه ما نصه:

«ويروى برأس الضب، والذنبة والذنب واحد، وقيل: الذنبة غير مستعملة، يضرب لمن يلجىء غيره الى ما يكره».

أروى من ضب

لا تريد العرب بذلك أن الضب امتلأ ريا، وأنه شرب من الماء الكفاية، وإنما تعني أنه لا يرد الماء أصلاً، وتذكر عنه أنه إذا عطش استقبل الريح ثم استروحها فيكون ريه من ذلك.

أسمع من ضب

هو بين المعنى ظاهر المراد.

أصبر من ضب

يقال فيه ذلك لما هو فيه من القشف وضيق العيش وسوء الحال.

أضل من ضب

والضب من طبيعته النسيان، ومن ثم لا تراه يتخذ جحره إلا بالقرب من أكمة، وإلا عند صخرة أو أي شيء ماثل، يجعل ذلك علامة عليه حتى لا يضل إذا أوى اليه، ولذلك ضرب به المثل في الحيرة وعدم الاهتداء فقيل: أضل من ضب.

أضيق من مبعج الضب

شرحه الميداني في أمثاله فقال ما نصه:

«هو مستقر الضب في جحره حيث يبعجه أي يشقه ويوسعه».

أطعم أخاك من عقنقل الضب
إنك إن لا تطعمه يغضب

وعقنقل الضب قانصته، أو هو مصيره، ويقال: هو كشيته.

يضرب في الحث على المواساة والتوصية بالإحسان.

أطول ذماء من الضب

تقدم القول بأن الذماء هو ما بين القتل وخروج النفس، أو هو حركة القتيل إلى أن يهدأ بالموت، أو هو بقية النفس وبطء الموت.

وإنما ضربوه مثلاً في طول الذماء لأنه يمكث الليلة فما فوقها مذبوحاً ذبحاً قاتلاً، فإذا قرب بعد ذلك من النار تحرك تحرك من به بقية من حياة، واضطرب اضطراب من لم يمت بَعْدُ.

أعقد من ذنب الضب

جاء فيه المثل لأن عقده كثيرة وتتعلق بذلك حكاية أوردها الميداني في مجمع الأمثال فقال:

«زعموا أن بعض الحاضرة كسا أعرابياً ثوباً فقال له: لأكافئنك على فعلك بما أعلمك، كم في ذنب الضب من عقدة؟ قال: لا أدري، قال: فيه إحدى وعشرون عقدة».

أعق من ضب

شرحه ابن الشجري في أماليه (135:1) فقال بالنص:

«من أمثالهم: (أعق من ضب) لأنه فيما يؤثر يأكل أولاده، وقال بعض أهل اللغة: قولهم أعق من ضب أصله من ضبة، وكثر ذلك في كلامهم فأسقطوا الهاء.

قال: وعقوقها أنها تأكل أولادها، وذلك أنها إذا باضت حرست بيضها من الحية والورل وغير ذلك مما يقدر عليه، فإذا نقبت أولادها وخرجت من البيض ظنتها شيئاً يريد بيضها فوثبت عليها فقتلتها وأكلتها، فلا ينجو منها إلا الشريد».

أعمر من ضب

في الدرة الفاخرة لحمزة الأصفهاني ما نصه:

«وأما قولهم: أعمر من ضب فحكى الزيادي عن الأصمعي أنه قال: يبلغ الحسل مائة عام ثم تسقط سنه، فيسمى حينئذ ضبا».

أقصر من إبهام الضب

شرحه الثعالبي في ثمار القلوب فقال:

«إبهام الضب يضرب به المثل في القصر فيقال: أقصر من إبهام الضب كما يقال: أقصر من إبهام القطاة وأقصر من إبهام الحبارى.

والعرب تحمد سعة الكف وتذم ضيقها وضيق الراحة، وفي وصف النبي ﷺ أنه كان رحب الراحة».

وقال الشاعر يذكر كف الضب هاجياً:

يقلب رأساً لم يكن رأس سيد
وكفا ككف الضب بل هي أحقر

أقصر من فتر الضب

الفتر بكسر الفاء وسكون التاء البعد الذي بين طرف الإبهام وطرف السبابة إذا فرجت بينهما تفريجاً معتاداً.

إن تكن ضباً فإني حسله

يضرب في الرجل اذا لقي مثله علماً ودهاء.

إنه لضب كلدة
لا يدرك حفراً ولا يؤخذ مذنبا

الكلدة الموضع الصلب الذي لا يعمل فيه المحفار، وتذنيب الضب أن يخرج ذنبه الى أدنى الجحر ويجعل رأسه الى داخله، وهو يفعل ذلك ليضرب من يريده من حارش أو حية، وقد ذَنَّبَ يُذَنِّبُ تذنيباً فهو مُذَنِّب إذا فعل ذلك .

والمثل يضرب في الرجل الداهية البعيد الغور الذي لا يدرك ما هو عليه ولا يوقف على ما عنده.

أول ما أطلع ضب ذنبه

يقرأ برفع أول على أنه مبتدأ مع رفع ذنبه على أنه خبر عنه ويقرأ أيضاً بنصب أول على الظرفية مع نصب ذنبه على أنه مفعول به.

يضرب في الرجل يأتي الخير لأول مرة.

بدت جنادعه

الضمير يعود على الضب والجنادع دويبات تكون بجحر الضب، وهي تبدو للحافر عليه عندما يقترب منه.

يضرب فيما يبدو من أوائل الشر.

تطلب ضبا وهذا ضب باد رأسه

هذا المثل لا يعني الضب بالذات وإنما هو تمثيل به.

والقصة فيه أن رجلين كلاهما يسمى ضباً وترا رجلاً ثم نزح أحدهما بعيداً، وبقي الآخر مقيماً معه قريب الدار منه، ولكنه كان يتوعد النائي عنه ويسكت عن المقيم الى جانبه فقيل له ذلك.

يضرب في القاعد عن الأخذ بالثار عجزاً وجبانة.

تعلمني بضب أنا حرشته

يقرأ تعلمني بتشديد اللام، ومعناه تخبرني، وحرش الضب صيده.

يضرب فيمن يخبر بالشيء من هو أعلم به منه.

جمع بين الضب والنون

الضب حيوان بري يلازم الصحراء ولا يكاد يشرب الماء والنون الحوت وهو حيوان بحري لا يفارق الماء، فهذان الحيوانان الضب والنون لن يلتقيا، وهم ضربوا ذلك مثلاً في الجمع بين المتنافيين، وذلك نظير قولهم: جمع بين الأروى والنعام، لأن الأروى يألف أعالي الجبال، فأما النعام فمواضع سكناها السهول.

حتى يجتمع الضب والنون

يضرب في تبعيد الأمر والإخبار عنه بأنه لن يقع أبداً، وذلك أن الضب لا يرد الماء أبداً ولا يقربه البتة، والنون وهو الحوت لا يعيش إلا به ولا تكون حياته إلا فيه.

حتى يحن الضب في أثر الابل الصادرة

يضرب في التأبيد وفيما لا ينتظر أن يكون.

حتى يرد الضب

يقولون: لا أفعل كذا حتى يرد الضب والضب لا يرد عندهم البتة ومما وضعوه على لسانه في ذلك: قالت السمكة: وردا يا ضب فقال يجيبها:

أصبح قلبي صردا — لا يشتهي أن يردا
إلا عرادا عردا — وصليانا بردا
وعنكثا ملتبدا

حل بواد ضبة مكون

المكن بيض الضب والمكون الضبة الكثيرة البيض.

يتمثل به فيمن أقام عند غني كريم فتقلب في نعمائه كيف يشاء.

خله درج الضب

فسره الزمخشري في المستقصى (2 : 76-77) فقال:

«خله درج الضب أي في درجه أجرى المحدود مجرى المبهم كقوله:

كما عسل الطريق الثعلب

وهو طريقه في جحره يلويه درجاً فوق درج فيتعسر استخراجه.

يضرب للرجل الذي ولى عنه صاحبه، أي خله ولا تذهب نفسك في أثره كما تخلى الضب اذا غاب في جحره..

ويروى : ما درج الضب أي ابدا».

ضباب أرض حرشها الأراقم

شرحه الميداني في أمثاله بما نصه :

«حرشها أي محروشها وما يحصل عليه منها والأرقم الحية تقتل إذا لسعت. يضرب لمن له هيبة وجاه، ثم لا يسلم عليه جار ولا قريب».

ضبة حزن في حوامي قلع

فسره الميداني في أمثاله بما لفظه:

«الحوامي النواحي والأطراف، والقلع جمع قلعة وهي

الصخرة العظيمة ، والضبة إذا كانت في مثل هذا المكان لا يقدر عليها صائدها .

يضرب لليقظ الحازم لا يخادع عن نفسه وماله» .

كل ضب عنده مرداته

فسره العسكري في جمهرة الأمثال على وجهين فقال ما نصه :

«معناه : لا تغتر بالسلامة ، فإن الأحداث والآفات معدة ، والمرداة الحجر الذي يردى به الحجر أي يـرمى به فيكسـره ، يقال : رديت الرجل إذا رميته بحجر ، يعني أن من أراد الضب في أي موضع رآه وجد حجراً يرميه به .

وقيل إن الضب سيء الهداية ، فلا يتخذ جحره إلا عند حجر يجعله علامة عليه ، فإذا خرج أخذ طالبه الحجر فرماه به» .

لا آتيك سن الحسل

شرحه أبو الفرج محمد بن عبيد الله بن سهيل في كتاب الضاد والظاء فقال :

«ومن عجائب الضب أنه لا يتغير ويقال في مثل لهم : (لا آتيك سن الحسل) كأنه قال حتى يكون ما لا يكون أبداً ، لأن الحسل لا يستبدل بأسنانه» .

لا تحسد الضب على ما في جحره

اقتصر الميداني في شرحه على ما يأتي :

«أي لا تحسد فلاناً على ما رزق من خير» .

لو ترك الضب بأعداء الوادي

هو مثل قولهم: لو ترك القطا ليلا لنام.

وأعداء الوادي نواحيه مفرده عدا بوزن رضا وعدا بوزن عصا.

ما أبالي ما نهيء من ضبك

يقال: نهيء اللحم ونهؤ نهأ ونهاء ونهاءة ونهوءة ونهوءاً فهي نهيء إذا لم ينضج.

ومعناه: لا أبالي أمرك كيف كان.

يضرب في عدم الاحتفال بالشيء وقلة الاكتراث به.

ما نهيء الضب وما نضِج

بين الميداني في أمثاله مضربه فقال:

« يضرب لمن لا يبرم الأمر ولا يتركه فهو متردد» .

ما هو إلا ضب كدية

أتى به الميداني في أمثاله (ج 2 ص 225) وكتب فيه ما يأتي:

«ويروى ضب كلدة وهما الصلب من الأرض.

يضرب لمن لا يقدر عليه.

وإنما ينسب الضب إليهما لأنه لا يحفر إلا في صلابة خوفاً من انهيار الجحر عليه» .

هذا أجل من الحرش

شرحه المرتضى في أماليه (1 : 235) فقال ما نصه:

«الاحتراش أن يقصد الرجل إلى جحر الضب فيضربه

بكفه ليحسبه الضب أفعى فيخرج إليه فيأخذه، يقال حرشت الضب واحترشته.

ومن أمثالهم: (هذا أجل من الحرش) يضرب عند الأمر يستعظم ويتكلم بذلك على لسان الضب.

قال ابن دريد: قال الضب لابنه: اتق الحرش. قال: وما الحرش قال: إذا سمعت حركة بباب الجحر فلا تخرج، فسمع يوماً وقع المحفار فقال: يا أبه، أهذا الحرش؟ فقال: هذا أجل من الحرش، فجعل مثلاً للرجل إذا سمع الشيء الذي هو أشد مما كان يتوقعه».

●●

ما وضعوه على لسانه من الكلام

والضب أعجم لا يتكلم، ولكن الأعراب تقولت عليه بعض الأقاويل ونحلتها إياه، إما على سبيل التظرف، وإما لتنوب عنه في شرح بعض أحواله، أو لتودعها مثلاً أو حكمة أو نصيحة ، وهذه أنماط من تلك التكاذيب المعزوة إليه :

حكت الأعراب في أحاديثها عن الضب أنه كان قاضي الطير والبهائم وصاحب الرأي عندها في الملمات، وحكوا أنها اجتمعت إليه يوم خلق الإنسان فوصفته له فقال: تصفون لي خلقاً ينزل الطير من السماء، ويخرج الحوت من الماء، ثم نصحهم وحذرهم فقال: من كان ذا جناح فليطر، ومن كان ذا مخلب فليفر.

ونسبوا إليه حكومة قضى فيها بين أرنب وثعلب هذه قصتها رواية عن الدرة الفاخرة لحمزة الأصفهاني قال:

«وأما قولهم: البادىء أظلم، فإن العرب تقول في أصل هذا المثل إن أرنباً وثعلباً اختصما إلى الضب فقالا: يا أبا الحسل، جئناك لتحكم بيننا فقال: في بيته يؤتى الحكم، فقال الأرنب: إني اجتنيت ثمرة، فقال: حُلْواً اجْتَنَيْتَ، قال: وإن

هذا أخذها مني، فقال: لنفسه بغى الخير، قال: وإني لطمته، قال البادِئ أظلم، قال: ثم لطمني، قال: كريم انتصر قال: فاحكم بيننا، فقال: حدث حديثين امرأة، فإن لم تفهم فأربعة، ويروى: فإن لم تفهم فَارْبَعْ أي كف، فذهبت كلمات الضب الخمس أمثالاً».

ومما وضعته على لسانه يخاطب ابنه:

أهدموا بيتك لا أبا لكا
وحسبوا أنك لا أخا لكا
وأنا أمشي الدَّأَلَى حَوَالَكا

أنشده سيبويه في باب ما يجيء مثنى منتصبا على إضمار الفعل المتروك إظهاره من الكتاب (ج 1 ص 351في طبعة عبد السلام محمد هارون).

وفي كامل المبرد (ج 2 ص 146) ما نصه:
«حدثني أبو عمر الجرمي قال: سألت أبا عبيدة عن قول الراجز:

أهدموا بيتك لا أبا لكا
وأنا أمشي الدَّأَلَى حَوَالَكا

فقلت: لمن هذا الشعر؟ فقال: هذا يقوله الضب للحسل أيام كانت الأشياء تتكلم».

ومن خطابه لابنه أيضاً ما أورده الشريف المرتضى في أماليه (ج 1 ص 235) فقال:

«من أمثالهم: هذا أجل من الحرش، يضرب عند الأمر يستعظم ويتكلم بذلك على لسان الضب.

قال ابن دريد: قال الضب لابنه: اتق الحرش، قال: وما الحرش؟ قال: إذا سمعت حركة بباب الجحر فلا تخرج، فسمع يوماً وقع المحفار فقال: يا أبه هذا الحرش؟ فقال: هذا أجل من الحرش، يجعل مثلاً للرجل إذا سمع الشيء الذي هو أشد مما كان يتوقعه».

ومن قولهم على لسانه إن الحوت قال له: وردا يا ضب فقال:

أصبح قلبي صردا لا يشتهي أن يردا
إلا عرادا عردا وصليانا بردا
وعنكثا ملتبدا

يقال: صرد عن الشيء إذا انتهى عنه ولم يرغب فيه بحال من الأحوال. والعراد والصليان والعنكث أصناف من النبات.

●●

الضب في الطب والخواص

ذكر القدماء من أطباء العرب والإسلام للضب منافع وخواص أطلع القارىء على أشياء منها دون أن أتعرض لتحقيق صادقها أو إبطال كاذبها لأني لا أتبين شيئاً من هذا وذاك، وما زال العلماء يكتشفون تارة بعد أخرى من عجائب المخلوقات ما يدهش العقول ويحير الألباب، وما يستعصي على الشرح والتفسير، وفي ذلك ما يَزَعُنا أن ننفي شيئاً منه أو نثبته غير مستيقنين من حالي النفي والإثبات.

في طب الجلد

قالوا عن خرئه إنه يجلو الكلف طلاء، ذكر ذلك ابن سينا في القانون، وزعم أنه مجرب صحيح.

وجاء فيه أنه يفيد في الحزاز، بل ذكروا أنه ربما نفع في البرص.

وذكروا عن دمه أنه إذا خلط بالبورق أذهب الكلف، وصفى لون الوجه ونضره تنضيرا

فـي طـب العيـن

خرؤه ينفع في بياض العين اكتحالا ، وربما نفع من نزول الماء فيها .

وشحمه بكبده ينفع من الهدبد، والهدبد قيل هو الخفش، وقيل إنه العَشَا، وقيل إنه كل ما يصيب العين بعامة، ومن سجع الأعراب في ذلك قولهم: دواء الهدبد شحمة ضب بكبد.

فـي طـب الأعضـاء

يؤكل قلبه لعلاج الخفقان، وأكل طحاله نافـع من وجع الطحال، وأخبروا عن الأعراب أنهم كـانوا يتـداوون بأكله من أوجاع الظهر.

فـــي البـــاه

قالوا عن شحمه إنه إذا أذيب وطلي به القضيب هيج شهوة الجماع .

وجاء عنهم في لحمه أنه إذا أكل مقلياً انتفع به ضعيف الشهوة وقواه على الوقاع .

وذكروا في جلده أنه إذا اتخذ ظرفا للعسل ولعق منه حرك شهوة الجماع وهيج الإنعاظ الشديد.

ومن خواصه فيما يتعلق بالباه أنه إذا سقي أحد إنسان عينه بماء السذاب سبب ذلك نقصاً في منيه أو قطعه قطعاً بالمرة .

وقالوا فيه أيضاً إنه إذا مر بين رجلي إنسان عاد بعدها عاجزاً عن مباشرة النساء.

ومن خواص كعبه أنه إذا علق على جبهة الفرس لم يسبقه شيء من الخيل في حلبة السباق.

ومن خواص جلده أنه إذا جعل غلافاً لسيف شجع حامله على القتال، وجرأه على مقارعة الأبطال.

الضب يتطبب لنفسه

والضب يطبب نفسه بنفسه إذا لدغته العقرب، ويجعل ترياقه فيها تلك الحشيشة التي تسمى آذان الفار، فيكون في أكلها شفاؤه.

ومن بابة ذلك ما زعموا في القنفذ أنه يتداوى بالسعتر البري من نهش الأفاعي.

ومن صنف ذلك ما ذكروا عن الأيل أنه يشتد به العطش من أكل الحيات إلى غاية ليس بعدها شيء، ولكنه يحتمي عند ذلك من الماء كأنه يعلم أنه في شربه تلفه، ولم يكن ذلك منه عن تجربة سابقة، ولا هو منه بخبرة سالفة، ولكنه بحِسٍّ يَجِلُّه، وبفطرة تقيه الوقوع في الهلكة.

ولا جرم أن اللَّه جلت حكمته قد ألهم أجناس الحيوان ما يفيدها في حفظ الحياة، ويفطنها لما تتقي به أعداءها، ومن يقصد إليها بالهلكة، وعليه فلا يستبعد القارىء أن يستشفي الحيوان من الداء بالدواء هداية من اللَّه ولطفاً منه، فإن اللَّه بخلقه لرؤوف رحيم.

الضب في التعبير

الضب سيء الذكر في كتب التعبير، والتأويل في رؤياه لا يخرج عن القبيح والمكروه.

قالوا فيه إنه يؤول بالرجل الخبيث المكار وجعلوه أيضاً رجلاً مجهول النسب، وتأولوه تارة أخرى بالرجل اللعين باعتبار أنه من الممسوخ.

وتأتي رؤياه دلالة على شبهة في الاكتساب ، كما تدل أحياناً على مرض يتوقع لرائيه .

●●

لعبة الضب

كان لفتيان العرب ألعاب يتلهون بها في الأحيان، وغالباً يكــــون ذلك في ليالي الصيف أو في أيـام الخصب من زمن الربيع.

فمن ذلـك لعبة البقيـري، وصورتهـا على مـا في تـاج العروس لمرتضى الزبيدي: «أن يأتوا إلى موضع قد خبىء لهم فيه شيء فيضربون بأيديهم بلا حفر يطلبونه».

ومنها لعبة خراج بزنة حذام بناء على الكسر، وصورتها على ما في اللسان لابن منظور حكاية عن الفراء قال:

«خراج اسم لعبة لهم معروفة وهو أن يمسك أحدهم شيئاً بيده ويقول لسائرهم: أخرجوا ما في يدي».

ومنها لعبة عظم وضاح، وفيها يقول ابن الأثير من كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر بالنص:

«هي لعبة لهم كانوا يطرحون عظماً بالليل يرمونه، فمن أصابه غلب أصحابه، وكانوا إذا غلب واحد من الفريقين ركب

أصحـابه الفـريق الآخر من المـوضع الـذي يجدونـه فيـه إلى الموضع الذي رموا به منه».

وجاء في النهاية أيضاً، والحديث فيه عن الرسول ﷺ ما نصه:

«بينما هو يلعب مع الصبيان وهو صغير بعظم وضاح مر عليه يهودي فقال له: لتقتلنّ صناديد هذه القرية».

ثم هنـاك لعبة الضب التي نحن بصـددهـا، وقـد مثـل الجاحظ صورتها في حيوانه (ج 6 ص 146) فقال ما نصه:

«ولعبة الضب أن يصوروا الضب في الأرض، ثم يحول واحد من الفريقين وجهه، ثم يضع بعضهم يده على شيء من الضب فيقول الذي يحول وجهه: أنف الضب، أو عين الضب، أو ذنب الضب، أو كذا وكذا من الضب على الولاء حتى يفرغ، فإن أخطأ ما وضع عليه يده ركب وركب أصحابه، وإن أصاب حـول وجهه الـذي كان وضـع يده على الضب ثم يصيـر هـو السائل».

●●

هل الضب مسخ؟

جاء في مفردات القرآن للراغب الأصفهاني وهو يفسر مادة (مسخ) ما نصه:

«المسخ تشويه الخلق والخلق وتحويلهما من صورة الى صورة.

قال بعض الحكماء: المسخ ضربان: مسخ خاص يحصل فيْ العينة، وهو مسخ الخلق، ومسخ قد يحصل في كل زمان، وهو مسخ الخلق، وذلك أن يصير الإنسان متخلقاً بخلق ذميم من أخلاق بعض الحيوانات، نحو أن يصير في شدة الحرص كالكلب، وفي الشره كالخنزير، وفي الغمارة كالثور، قال: وعلى هذا أحد الوجهين في قوله: (وجعل منهم القردة والخنازير) وقوله: (لمسخناهم على مكانتهم) يتضمن الأمرين، وإن كان في الأول أظهر».

وأيا ما كان فإن اللّه جلت حكمته قادر كل القدرة على أن يبدل هذا الإنسان الذي خلقه في أحسن تقويم تبديلًا يجعله في أقبح صورة وأشنع مثال، فيصيره قرداً أو خنزيراً أو أي شيء غيرهما مما يكون مقبوحاً في العيون مشنوءاً في النفوس فهذا هذا.

وبعد فإنه يأتي التساؤل عن تلك المسوخ هل تهلك فور المسخ أم تحيا بعده إلى حين، وهل تتناسل إن حييت من بعده، وهل يكون من أنسالها شيء من هذه القردة والخنازير وغيرها من حيوانات يقال عنها إنها مسوخ.

إن غير واحد من حكماء الإسلام قد بحثوا تلك المسائل وجاءوا فيها بأقاويل نحيل القارىء المتفحص عليها لننصرف الى الضب وذكر ما جاء فيه من أنه بقية من مسوخ انحدرت من أمم وقع عليها المسخ في الأيام الخالية.

جاء في كتاب الصيد والذبائح من صحيح مسلم:

«حدثنا إسحاق بن إبراهيم وعبد بن حميد قالا: أخبرنا عبد الرزاق عن ابن جريج، أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: أتي رسول الله ﷺ بضب فأبى أن يأكل منه وقال: لا أدري لعله من القرون التي مسخت».

وفي صحيح مسلم أيضاً من كتاب الصيد والذبائح:

«حدثني محمد بن حاتم، حدثنا بهز، حدثنا أبو عقيل الدورقي، حدثنا أبو نضرة عن أبي سعيد أن أعرابياً أتى رسول اللّه ﷺ فقال: إني في غائط مضبة وإنه لعامة طعام أهلي، قال: فلم يجبه، فقلنا له: عاوده فعاوده فلم يجبه ثلاثاً، ثم ناداه رسول الله ﷺ في الثالثة فقال: يا أعرابي إن الله لعن أو غضب على سبط من بني إسرائيل فمسخهم دواب يدبون في الأرض، فلا

أدري لعل هذا منها، فلست آكلها ولا أنهي عنها».

وفيه من نفس الكتاب:

«حدثني محمد بن المثنى، حدثنا ابن أبي عدي عن داود عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: قال رجل: يا رسول الله إني بأرض مضبة، فما تأمرنا أو فما تفتينا؟ قال: ذكر لي أن أمة من بني إسرائيل مسخت فلم يأمر ولم ينه، قال أبو سعيد: فلما كان بعد ذلك قال عمر: إن الله عز وجل لينفع به غير واحد، وإنه لطعام عامة هذه الرعاء، ولو كان عندي لطعمته، إنما عافه رسول الله ﷺ».

وفي المصنف لعبد الرزاق بن همام الصنعاني (ج4 ص512) عن أبي سعيد الخدري:

«أتي النبي ﷺ بضب فقال: تاه سبط من بني إسرائيل ممن غضب الله عليه، فإن يك في الأرض فهو هذا».

وفي الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ج 1 ص 422-423) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ الآية 65 من البقرة ما نصه:

«وأما قوله عليه السلام في حديث أبي هريرة: (فقدت أمة من بني اسرائيل لا يدري ما فعلت، ولا أراها إلا الفار، ألا ترون أنها إذا وضع لها ألبان الابل لم تشربها، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربتها) وفي الضب: (لا أدري لعله من القرون التي

مسخت) وما كان مثله، فإنما كان ظناً وخوفاً لأن يكون الضب والفار وغيرهما مما مسخ، وكان هذا حدساً منه ﷺ قبل أن يوحى إليه أن الله لم يجعل للمسخ نسلا، فلما أوحى إليه بذلك زال عنه ذلك التخوف، وعلم أن الضب والفار ليسا مما مسخ، وعند ذلك أخبرنا بقوله ﷺ لمن سأله عن القردة والخنازير: أهي مما مسخ فقال: (إن الله لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلاً، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك) وهذا نص صريح رواه عبد الله بن مسعود، وأخرجه مسلم في كتاب القدر، وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم ينكر، فدل ذلك على صحة ما ذكرنا، وبالله توفيقنا».

وجاء في حيوان الجاحظ (ج 6 ص 77):

«وحرمه قوم ورووا أن أمتين مسختا وأخذت إحداهما في البر فهي في الضباب، وأخذت الأخرى في البحر».

وفيه من نفس الجزء والصفحة:

«ورووا عن بعض الفقهاء أنه رأى رجلاً أكل لحم ضب فقال: اعلم أنك قد أكلت شيخاً من مشيخة بني اسرائيل».

وفيه من الجزء والصفحة:

«وقال بعض من يعافه: الذي يدل على أنه مسخ شبه كفه بكف الإنسان».

وفيه يقول الغدار الأبرص:

له كف إنسان وخلق عظاية
وكالقرد والخنزير في المسخ والغضب

قول الغدار في عجز البيت:

وكالقرد والخنزير في المسخ والغضب

أومأ فيه إلى الآية 60 من المائدة وهي قوله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت﴾.

●●

خاتمة

نختم الكلام في الضب بأن نخبر عنه بأنه كان من مؤمني الحيوان.

في الخصائص الكبرى للجلال السيوطي (ج 2 ص 275 بتحقيق محمد خليل هراس مطبعة المدني سنة 1967) ما نصه:

«أخرج الطبراني في الأوسط والصغير، وابن عدي والحاكم في المعجزات، والبيهقي وأبو نعيم وابن عساكر عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ كان في محفل من أصحابه إذ جاء أعرابي من بني سليم قد صاد ضباً فقال: واللات والعزى لا آمنت بك حتى يؤمن بك هذا الضب، فقال رسول اللّه ﷺ: من أنا يا ضب؟ فقال الضب بلسان عربي مبين يفهمه القوم جميعاً: لبيك وسعديك يا رسول رب العالمين، قال: من تعبد؟ فقال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عذابه، قال: فمن أنا؟ قال: أنت رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، قد أفلح من صدقك، وقد خاب من كذبك، فأسلم الأعرابي».

●●

المحتوى

●●



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم 1988/7/1000/136

سحب جديد - 2000 - 2 - 1993

التنضيد : سامو برس / بيروت

الطباعة:  مؤسسة جواد للطباعة والتصوير - بيروت - لبنان